كتاب الانتظارات

AFAC ARAB FUND FOR
ARTS AND CULTURE
الصندوق العربي
للثقافة والفنون

«نُشر هذا الكتاب بدعم من الصندوق العربي للثقافة والفنون _ آفاق»

الكتاب	كتاب الانتظارات
الكاتب	وقاص الصادق عبد الجبار الشفيع
تاريخ النشر	الطبعة الأولى 2023
رقم الإيداع	2023/0045
الترقيم الدولي	ISBN: 978-99988-50-80-7

الناشر

نرتقي للنشر و التوزيع
FOR PRINTING AND PUBLISHING

السودان _ الخرطوم
المنشية مربع 25 شارع الترابي
esraaamin254@gmail.com

حقوق النشر محفوظة للناشر والمؤلف

التدقيق اللغوي: مأمون الجاك

الغلاف والتصميم الداخلي: الفنان التشكيلي بكري خضر

وقاص الصادق عبد الجبار الشفيع

كتاب الانتظارات

مجموعة قصصية

الى روح أبي

الكلمات والبطء

اختفت ساعتان من العالم، كانت الساعة الثانية ظهرا ثم صارت الرابعة عصرا، ليغدو الأمر خبرا عاجلا في جميع القنوات الإخبارية ومراكز البحوث وأزقة السوق العربي، لا أحد فهِم ما حدث، إلا النائمين الذين لم يشهدوا ما حصل والعمال الذين فرحوا بقِصر ساعات العمل والطلاب والموظفين بالطبع، لكن الأمر كان مقلقا للأغلبية من الناس الذين تشبثوا بساعاتهم، خائفين من أيّ اختفاءات أخرى، امتلأت الجوامع والكنائس فجأة بالمرتعدين من أنها القيامة، تعالت أصوات الصلوات والابتهالات، ولم ترسل ''ناسا'' معلومات مفيدة سوى أن الشمس كانت هناك وفجأة انتقلت لمكان آخر. ورغم بساطة هذه الظاهرة لكن وجهها المأساوي كان عجيبا، آلاف حالات الوفاة في المستشفيات وفي الطرقات إثر حوادث مرورية رهيبة، وفي الجو إثر حوادث الطيران وتساقطاتها المفزعة، واصطدامات القطارات، وحرائق المصانع والبيوت، مما جعل العلماء والناس يتسائلون عن طبيعة اختفاء الساعتين، وأنه

ليس اختفاء بل مرورا سريعا، أسرع من الوعي البشري، فالسيارات لم تنقطع حركتها بل ذهبت في الطرق حتى اصطدمت بسيارات أخرى أو بحوائط أو عوائق دون أن يعي السائق ذلك، وبحيث تجاوزت الطائرة المطار دون أن يوقفها الكابتن، وبردت القهوة دون أن يشربها الشخص الجالس أمامها، مثلما استمرت "الحلل" فوق نيران البوتوجاز طوال ساعتين، مما أدى لحرائق وإصابات مؤسفة، هذا غير اللصوص الذين أشرقت الشمس عليهم فجأة داخل البيوت والبنوك ولم يستطيعوا حتى أن يركضوا هاربين من هول الصدمة، والمدفعية التي ظلّت تضرب وحدها لمدة ساعتين حاصدة أرواح الجنود، ليجد الجيش نفسه منتصرا بينما الجيش الآخر منهزما، دون أن يعرفوا كيف ولماذا؟ لكنها بنفس القدر كانت ظاهرة مبهجة في أماكن أخرى، مثلا الوردة التي تفتحت للتو بين عاشقين، فجأة وجداها هنا، ورأى العاشق ذلك إشارة فطلب يدها وقبلت. كل السفن والطائرات التي وصلت دون مشقة الانتظارات، ليالي الأرق المنتهية سريعا في أماكن كثيرة من العالم، نهارات مملة أيضا، صباحات شتوية سيئة انقضت في لمحة بصر، الولادات التي انتهت بلا ألم، فجأة وجدت الأمهات أطفالهن بجانبهن، ليقررن أنها معجزة وينذرن النذور، ويبشرن

الأطباء المذهولين بالمكافآت، بعضهن استنتج أن مواليدهن أنبياء منتظرون، فهربن بهم من المستشفيات. كانت تجربة عاشها كل من موقعه وحالته الخاصة، لكن كان لابد للرأي الجمعي من تصنيفها، إما حدث جيد أو حدث سيء أو حدث مرعب، مضطّرين للالتفات للعلماء، الذين حين لم يصلوا لشيء رغم دراساتهم المطولة، هبّ بعضهم نحو آراء المتصوفة حول زيف الزمن ولا استقامته، البعض الآخر هبّ لنظريات آينشتاين القديمة عن النسبية، بينما استعان جزء ثالث بأفلام كرستوفر نولان. بعد مرور نصف ساعة من الحدث تفاءل المتفائلون من العلماء مفترضين أنها ربما بداية جديدة للتاريخ وتطور طبيعي للوعي الكوني، وهي أن يمر الزمن سريعا خلال الأوقات المملة والغبية: الحروب مثلا، المجاعات، الحكومات الدكتاتورية، سنوات الأفلام التجارية الرديئة، سنوات الحروب الباردة، عطلات المباريات الدولية، أوقات القيلولة، أيام الكورونا، الانقلابات وحظر التجول، فالكون يبعث لنا هذه الإمكانية، وما علينا سوى البحث عنها، لكن المتشائمين كانوا أقوى حجة، كانوا يرون في اختفاء ساعتين من العالم إمكانية لا نهائية لحدوث أي شيء، كانوا يبكون في الشوارع على انتهاء العالم كما نعرفه، ربما تذهب سنتان بنفس الكيفية، عشر سنوات، كيف

نخطط لمستقبلنا داخل حياة تختفي فيها الساعات، اقترح البعض أنه خلل ميكانيكي في الساعات، بينما ادّعى البعض أنهم عاشوا الساعتين بشكل عادي جدا دون أي اختفاء، وصاروا إثر ذلك نجوما تلفزيونية، إذ استضافتهم القنوات ليحكوا ما الذي رأوه خلال هاتين الساعتين، وبشكل مدهش تسمّر الملايين أمام التلفاز لرؤية ما وراء الأولمب، فالساعتان صارتا غيب العالم الحالي، لمجرد اختفائهما صارتا لا نهائتين، يتوق الناس لمعرفة ما حدث فيهما، وسرعان ما أعلن مجدي الميكانيكي ذلك فتصارعت عليه القنوات وأغدقوا عليه الدولارات، ثم أعلن عثمان صاحب الدكان فتصارعت عليه القنوات أيضا، صارت ظاهرة عالمية ادّعاها الآلاف مما جعل الحكومات تنشر جنودها في الشوارع وتأمر بجلد كل شخص يدّعي مرور الساعتين بشكل عادي. لكن بعد مرور ساعة ونصف لم يضطروا أن يجلدوا أحدا، فقد كان العالم على أعتاب حدث آخر أكثر غرابة وأكثر دهشة –قبل أن يستفيق الناس من صدمتهم الأولى– استطالت الطرق، شارع الحرية مثلا صار أطول من ذي قبل، كبري شمبات تمدد لضعف مسافته، ولم يكن ذلك تمددا فيزيائيا بل حين تفحصه العلماء وجدوه ثقلا في الخطوات البشرية العادية، وثقلا في حركة العربات، لكنه

غير محسوس، إذ بقياسات دقيقة وجدوا أنه نصف استطالة للشوارع ونصف ثقل في الحركة، بمعنى أنه تغيّر متوازن بين حركة البشر وحركة الكون كله، بحيث استمرت الحياة كما هي، لكن بشكل أبطأ، كأنها إعادة بطيئة لهدف في مباراة كرة قدم، دون تغيّر في الوعي البشري الملاحظ لهذا الثقل، فببساطة الثواني صارت دقائق والدقائق صارت ساعات، واللحظات رغم فقدانها لهويتها كلحظات، لكنها عمليا ما زالت لحظات، فقط أطول قليلا، فالتفاتة البنت السريعة لك في محطة المواصلات لم تعد سريعة الآن، بل تحدث حرفيا بالحركة البطيئة، إذ يمكن التمعن في وجهها وملاحظة تعابيرها إن وجدت، وساندوتش البيرغر الذي ينفد سريعا، لن ينفد سريعا في هذه اللحظات، ستستمتع بكل قضمة صغيرة فيه، وستلحس أصابعك كما لم تفعل من قبل بلحسات لا نهائية، وبطبيعة الحال اندهش الناس ببطء، واحتار اللص من طول الشارع الذي يجري فيها هربا من الشرطي، بينما احتار الشرطي أيضا، وفهم البعض الوضع كما يجب فهرعوا لتقبيل حبيباتهم، وأرسلت وكالة ناسا تقريرا عن بطء في حركة الشمس، لكن التقرير كان يسير ببطء أيضا! كان بإمكانك أن تصب القهوة على الأرض وترى اندلاقها البطيء، خروجها عن الكوب باستحياء،

انتشارها في تلك المساحة خارج الكوب، تفرُّق أجزائها، تغير لونها مع انعكاسات الأضواء المختلفة، ثم اقترابها من الأرض، ولحظة ارتطامها بها. كذلك الطريقة التي تحلق بها فراشة، دخول شخص عبر باب، يبدو حدثا شاعريا الآن، الطريقة التي تعطس بها حبيبتك، ضحكة رجل عجوز، موظف مستعجل، وحدها الكلمات هي التي نجت من هذا البطء، وهذا ما لوحظ خلال نصف ساعة، تلك التي تخرج من الأفواه، ما تزال بنفس رشاقتها وسرعتها داخل تلك اللحظات المتمددة البطيئة جدا، ولم يفهم العلماء سر ذلك، بينما استنتج الفلاسفة أنها دعوة من الكون لنتكلم أكثر، فهذه حرفيا أول مرة في التاريخ تكون فيها الكلمة أسرع من الطلقة، والحوارات أسرع من تعبئة الجيوش وتجهيز المدافع، والأغاني تنطلق لتسابق الطائرات النفّاثة .وبرغم اتساع الوقت للتفكير، وتمدد الثواني للمناقشات والدراسات والاستنتاجات، لم يفهم أحد ما جرى، في البداية تختفي ساعتان، ثم بعد ساعة يتباطأ الوقت هكذا حتى تمر الثانية كأنها ساعة؟ ما الذي يحدث للعالم؟

”في إحدى غرف السماء، وبينما كان الملاك الموكل بالانتظارات يقضي دوامه الصباحي الممل، لاحظ فتاة تنتظر حبيبها في المدخل الشمالي لكبري الحرية، متجاهلة

مغازلات المارة ولذعة الشمس المتزايدة، وقلقها الطبيعي من الانتظار، بينما كان حبيبها في جزء آخر من المدينة ولن يصل إلا بعد ساعتين، ولسبب غير مفهوم لم يستطع الملاك نسيان هذا المشهد رغم مروره على كل انتظارات العالم، حين عاد مجددا لها كانت على وشك اتخاذ قرار المغادرة بعد قرار التصّبر بشطيرة طعمية، بينما كان حبيبها متورطا في مواصلات وطرق مزدحمة ومسدودة وبطارية هاتف مغلقة، وكان يومهما السيء على وشك أن يصير أكثر سوءا، لولا قرار الملاك الموكّل بالانتظارات».

غرفة الشيخ آدم

يُقال بأن الحكاية بدأت بريح شمالية باردة هبّت في جبل مرة، متخللة أشجار البرتقال وحقول القرع، نحو عريشة الشيخ آدم، على إثرها وقف الشيخ وأشار بعصاه إلى الشارع المجاور لبيته، ولم يفهم أحد سر هذه الإشارة في وقتها. في اليوم التالي ذهب إلى قسم الشرطة ووضع أمامهم ورقة مكتوبة بخط جميل جدا، ومختومة بمخالب نمر جبلي على بقعة عسل، لكن محتوى الورقة كان أكثر رعبا، إذ يُحيل فيها الإله كل ما يمر عبر شارع بيت الشيخ آدم لملكية الشيخ آدم، وذلك بشروط دقيقة جدا، انفجر الضابط ضحكا، وظنها دعابة من الرجل فسأله متهكما: ما هي هذه الشروط؟! فهمهم الشيخ آدم وقال: لا أعرف. ثم ذهب.

في اليوم التالي أتاه بقماشة حرير منسوجا عليها جملة طويلة، ومرة أخرى ضحك الضابط حين ظنها دعابة أيضا:

”الشرط الأول أنك لا تملك البشر، بل الأشياء. الشرط

الثاني أن كل ما تناله من الشارع عليك استخدامه في نفس الوقت ونفس اللحظة وإلا انتهت ملكيتك للشارع».

لم يأبه الضابط بهذه الواقعة، فختم له الورقة بخِتم الشرطة منشغلا بمحاولة أخذ قماشة الحرير لزوجته، فيما عاد الشيخ آدم إلى بيته واشترى بندقية كلاشنكوف، وفي فجر الغد وقف في منتصف الشارع ثم قال: بسم الله، لحظتها مرت دورية الشرطة وبداخلها الضابط ذاته، فاسترد منه قماشته الحريرية أولا ثم أخذ الدوريّة ونقل بها شحنتي برتقال. في اليوم الخامس أتى رعاة بفوج من البقر يقدر بخمسين رأسا، فجمع فورا خمسين رجلا من القرية جاؤوا بسكاكينهم، وحين قال لهم اذبحوا ذبحوا دون أن يفهموا شيئا، فنامت القرية بشبع لم تعهده من قبل. في اليوم الثامن أتى فوج سياحي، فأخذ أموالهم وهواتفهم وعشرات الكاميرات، الأموال اشترى بها مؤنا للقرية، أما الكاميرات فتركته محتارا في ماهيتها، ثم في كيفية استعمالها كلها في نفس الوقت، فوزّعها على أهل القرية وأوقفهم في صفوف متتالية، بعدها أمرهم بأن يضغطوا الزرّ الأعلى، لا أحد يعرف ماذا حدث، فقط أضواء كثيرة لمعت، ثم حين أراد جمعها منهم قيل له إن هذه مجرد لقطة، وأن المتبقي في كل كاميرا خمسمئة لقطة، فترك الكاميرات للناس ليلتقطوا بها صورا

طوال اليوم، وجمعها في نهايته واضعا لها في غرفته، بعدها جاء دور الهواتف، لكنه لم يجد سوى خمسة أشخاص فقط يحفظون أرقاما لذويهم في المدن، فأنقذه أحدهم قائلا إنه يعرف أرقاما أخرى: رقم قسم الشرطة، مكتب الوالي، مكتب جهاز الأمن، ورقم الإسعاف المركزي، لم يستجب رقم الإسعاف، لكن الأرقام الأخرى أجابت، فجرت أسرع مكالمة ممكنة حسب تعليمات الشيخ آدم: ”السلام عليكم، كيف حالك، مع السلامة».. مما أثار حفيظة مكتب الوالي وجهاز الأمن لينقلوا قلقهم لقسم الشرطة والضابط المناوب، الذي فهم الأمر سريعا، وأخبرهم بمعرفته لمصدر المكالمة دون سببها، مخافة أن يظنوه يمزح فيفصلوه. في الصباح التالي حرّك دوريتي شرطة لبيت الشيخ آدم، متوقعا ما سيحدث، وهو ما حدث، أُخذت منهم العشرين بندقية وصيدت بها عشرين قمرية ثم استعملت في تتريس أحد الأودية، وحين دخل الضابط للجنة التحقيق وأخبرهم بمصير أسلحته ظنوه يستهزئ بهم. ذهب الوالي لبيت الشيخ آدم، ورأى ختم الشرطة بجوار ختم النمر الجبلي على بقعة العسل، في الورقة التي تهبه كل ما يمر بهذا الشارع، فما استطاع كلاما خشية الفضيحة وأوصى بتجاهل أمره. في أيام قادمات مرت شاحنات بطيخ،

فشبعت القرية وعاشت ليلة عصيبة بالقرب من الحمّامات، ثم شاحنات محملة بالراديوهات، مما سبب معضلة حقيقية للشيخ آدم حين قيل له إنها لا تعمل إلا بالكهرباء، فاضطر لأن يسرق بابور المحلية وأسلاك غسيل بيوت كثيرة جدا، ليستطيع أن يشغّل الراديوهات كلها معا في نفس اللحظة، حلّقت طيور كثيرة فزعا من كل هذا القدر من الأصوات، بينما كان الشيخ آدم مستمتعا بتنفيذه للشروط في كل غنائمه دون أي تعثرات. أما ضابط الشرطة المعاقب ففكّر لعدة أيام في الأمر ولاحظ أخيرا لنقطة الشروط، فاقترح لمجلس الولاية حلّا ناجحا، وهو أن يمر عبر الشارع شيء لن يعرف الشيخ آدم كيفية استخدامه، أرسلوا له لعبة شطرنج، صوادم باعوض، كراسٍ بأحجام صغيرة جدا، تحف وتماثيل، ولا أعرف كيف استعملها الشيخ آدم، طلاء لبيوت من القش، قيل إنه لوّن بها أجزاء من الجبل، مشغلات إم بي ثري، جيتارات، ألواح تزلج ثلجية، وجبات مسمومة، أقفال بلا مفاتيح، بدلة غطس، عملات فرنسية قديمة، أجهزة غريبة ومعقدة لا يعرف الضابط نفسه طريقة استعمالها، عشرات الأشياء العجيبة التي عبرت شارع الشيخ آدم من جميع أنحاء العالم، ليعيد استعمالها بأقصى سرعة ممكنة ثم يضعها في غرفته، ولا أحد عرف كيف وظف فيلا هنديا

صغيرا، أو تمثالا ضخما لبوذا، أو هاتف آيفون بكلمة سر طويلة، مما خلّف حيرة عجيبة في مجلس الولاية، الذي عنّف الضابط على تضييعه للميزانية الخرافية الموفرة له من أجل إيقاف الشيخ آدم. قال لهم الضابط: ثمة شيء خاطئ وغير مفهوم، إنه يستعمل لوحات فنية لصنع طاولات، الأكورديون صار حنفية في منزله، المنطاد الذي ابتعناه من النرويج صار خيمة في فناء بيته، المركب التي قلنا إنه لن يجد لها بحرا، صارت أريكة في غرفته، فالشيخ آدم يستخدم الأشياء استخداما خاطئا، لكننا لا نعرف لمن نرفع هذه الشكوى!!.. قال لهم أحد المستشارين إنه يستعمل الأشياء بالطريقة التي تفيده، ومن ثم لا يمكن تصنيفها بأنها طريقة خاطئة، فالمركب لا تعي بأنها مركب، ولذا يمكن أن تجلس مرتاحة جدا كأريكة داخل منزل دون أن تسمع بذلك الشيء المدعو بحرا. حينها لمعت فكرة في عيني الضابط، فاعترف لهم بخطأ إرسالهم لأشياء لا يعرف الشيخ آدم استعمالها، وأن الحل هو إرسال شيء يعرفه الشيخ آدم جيدا، ويجيد استعماله، لكن الخدعة أنه معد لاستعمال لا نهائي!. ثم في صبيحة الغد أرسل الضابط ثلاث شاحنات محملة بالكتب. ولم يجد الشيخ آدم شخصا يجيد القراءة غيره في القرية، أحسّ بالورطة، وبالسنين الطويلة التي سيقضيها هناك أمام

الكتب، وبالفعل ولخمس سنين كاملة ظل الشارع آمنا منه ومن غاراته. احتفل الضابط ومجلس الولاية بهذا الإنجاز، أما القرية فعاشت أياما سيئة دون غنائم الشيخ آدم، وانتظرت بحرقة وصبر خروجه من عزلته، ولما أتى ذلك اليوم خرج الشيخ آدم ليجد أهل القرية جميعا بانتظاره، تجاوزهم إلى أن وقف في منتصف الشارع وقال: بسم الله، فكانت أولى غنائمه شاحنة محمّلة بالعشرات من صناديق الورق الأبيض الناصع، والمئات من أقلام الرصاص والحبر، مرسلة بحرص وخبث من الضابط نفسه، فلمعت أمام الشيخ آدم للحظة كل تلك السنوات التي سيقضيها في الكتابة، أخذ الشاحنة وأدخلها المنزل، ومنذها لم يره أحد.

بعد أشهر دخل عليه عمدة القرية في غرفته ولم يخرج أيضا، دخل عليه أبناء عمومته ولم يخرجوا، دخلت عليه دورية شرطة كاملة وما خرجت، جنود من الجيش ظلوا هناك، عرّاف المنطقة أيضا، إمام الجامع حاملا مصحفه، حارت الحكومة في هذه الغرفة التي تأكل الناس هكذا، وحتى لما قرّروا ''تهوّرا'' قصفها، دخلت قذيفة المدفع وبقيت هناك. بعد عدة سنوات سأل صحفي الضابط القديم عما يمكن أن يوجد داخل غرفة الشيخ آدم، فقال الضابط دون كثير تفكير: ''العالم كلّه».

برديّة الجلوس

وفي اليوم التالي لم يجد أحد كرسياً ليجلس عليه، لا صاحب الدكان ولا رئيس الجمهورية، ولا أول شخص صعد إلى الحافلة، فقد كانت فارغة تماما من كل ما يمكن الجلوس عليه، ولم يكن باستطاعة السائق تفسير الأمر، فهو كذلك كان يقودها واقفا على أمشاطه، ولنختصر الاندهاشات فإن العالم كله كان يقف ''شماعة'' في ذلك اليوم! حتى داخل البيوت والحمّامات؛ فلما دخل المستيقظ الأول إلى الحمام لم يجد المقعد، ولم يعرف كيف يفعلها فلم يفعلها، والآن حسب الإحصائيات هناك 34% من سكان العالم لم يفعلوها هذا الصباح، وكلهم الآن واقفون أمام الحمام على أطراف أرجلهم القلقة، والبقية تصرّفوا ولا أريد ذكر التفاصيل ولا معرفتها. في البداية أتى شخص لقسم الشرطة ليبلّغ عن سرقة كراسي البيت، ليجد القسم يشكو ذات اللص، ثم ليجد القرية كلها سائرة في الشوارع باحثة عن هذا اللص. أحدهم لاحظ اختفاء ''البنابر'' أيضا، ثم المساطب، ثم الحجارة الكبيرة والبلوكات والطوب الأحمر

ووو .. جذوع الشجر الكبيرة، اللساتك، انترلوك الرصيف، مساطب الاستادات، النجائل بأنواعها، التلال والروابي، بعض الأرصفة، عشرات الطرابيز، نتوءات الإسمنت، ولم تظهر المشكلة في برنامج الصباح التلفازي، إذ كان المذيع يدّعي أنه جالس بينما كان يقف على عضلات ساقه حتى سقط فجأة وانقطع البث!. أما رئيس الجمهورية فاعتقد أنها مؤامرة على كرسيه الشخصي، ولم يستطع حرسه ومستشاروه إقناعه بأنها مشكلة عامة، عجز علماء الفيزياء والكيمياء والتاريخ عن تفسيرها، لكن الفيلسوف قال إنها احتجاج التاريخ على فكرة الجلوس. ومع حلول الساعة التاسعة فقد الناس قدرتهم على التحمّل، أرادوا ببساطة أن يجلسوا ليفكروا في المشكلة، وتلك هي المشكلة. حين جلسوا على السرائر اختفت فلم يقربوا ما تبقى منها، حاول بعضهم الجلوس على الأرض فهاجمته قطعان غريبة من النمل، وكلما حاول البعض تسلق النوافذ تهبّ رياح غريبة فتُسقطهم، بل إن بعضهم مات، أعلنت الحكومات منع الجلوس على النوافذ ثم منع الجلوس على الأسطح، والجلوس على سفوح الجبال، على المراجيح، على فروع الأشجار، ثم منع الجلوس مطلقاً على أي شيء لئلا يختفي، وحين أتت الأوامر للشرطة لتنفيذ هذا المنع اصطدمت باستحالة صغيرة؛

كيف يقودون العربات وقوفا لينقلوا بها الجنود، فأول عربة شرطة خرجت؛ ومع أول انعطافة؛ جلس السأئق لا شعوريا على المقعد فاختفى الكرسي ثم اختفت الماكينة نفسها ليجد نفسه مقلوبا بكامل العربة. بات واضحا أنه حدث تاريخي ومفصلي جداً ولابد من توثيقه، جلس الكاتب على الأرض ليوثقه فهاجمته قطعان النمل. أحدهم صنفها بأنها ظاهرة إنسانية فقط حين لمح عصفوراً يرُك على غصن دون اختفائه، لكن الفيلسوف رأى في هذه الملحوظة نهاية للآلاف من الفرضيات العلمية، نهاية عصر كامل من العلم، خصوصا حين تتبع بقية الحيوانات وتأكد من عدم فقدانها للجلوس، فأياكان ما وراء هذا العالم فهو ينظر الآن للإنسان بعين مختلفة، متسائلا إن كان التاريخ الإنساني ينفصل الآن عن تاريخ الكائنات، أم أنه منفصل منذ البداية؟ أم أنه تطور إنساني آخر كصعود لقمة جديدة من الرقي الجسدي والعقلي؟ أم أنه بداية عصر الانحطاط؟ لكنه ولأنه غدا عاجزا عن التفكير أكثر من ذلك دون أن يجلس ويرتاح قليلا، تسائل إن كانت هذه هي نهاية عصر التفكير. ومع دخولنا الساعة العاشرة ووقت الفطور عاد تململ الناس مرة أخرى وكيف نفطر ونريد أن نجلس ووو .. ثم بعد الفطور كان عليهم أن يشربوا الشاي وقوفا. وعندما انتصف النهار

جاءت ذروة احتياج الناس للجلوس، وبدأت الململة تتخذ منعطفاتٍ أكبر، احتجاجات جماعية وبكائيات وصراخ وانتشار الانتحارات، ومحاولات الانتحارات، خصوصا حين دخلت ساعة القهوة النهارية، فتفاقمت حكّة الجلوس وحدّة الصداعات والانهيارات الجسدية، صار كل واحد ينظر لموضع جلوسه ويبكي، انفعلت الأمزجة وفار الغضب، وانفرط العقد وانتشرت الفوضى والمشاكل بأنواعها، واندلعت الحروب في مناطق متفرقة من العالم، التي استمرت لنصف ساعة فقط حين أحسّ الجنود أنهم لن يجدوا ما يجلسون عليه للراحة فرموا أسلحتهم وانصرفوا. اقتُحمت الصيدليات جميعها ومصانع الأدوية من أجل المنشطات والمقويات والمهدئات، مصانع مشاريب الطاقة والمعامل الكيميائية ومزارع البن ونوادي اليوغا ومراكز طب الأعشاب، وانتشرت إشاعة أن كراسي البرلمان لم تختفِ فاقتحموا البرلمان، ثم انتشرت إشاعة أن كراسي القصر الجمهوري لم تختفِ فاقتحموا القصر الجمهوري، ولم يجدوا كرسيا واحدا، ولا حتى كرسي الرئيس نفسه؛ سرت شائعات بأن رئيس الجمهورية أول من اكتشف اختفاء الكراسي، لا من باب أنه أول من يعرف كل شيء وهذا احتمال وارد أيضا، وإنما لأن التقارير السرية تفيد بأن الرئيس دائماً ما

يستيقظ في منتصف الليل ثم يعاني الأرق ولا يستطيع الرجوع للنوم، ما لم يجلس على كرسيه الرئاسي! فداخل كرسيه كان يحس بأحساسيس مختلفة، بأنه قوي، وقادر على كل شيء، بما في ذلك النوم، لذلك حين سقط الرئيس على الأرض الساعة الثانية صباحاً تلفّت مخلوعاً ثم صاح بأعلى صوته، فأُضيئت المصابيح وأُعلنت الطوارئ داخل القصر، واستنفرت الدبابات، وكانو على وشك إعلان الطوارئ في البلاد. لكن تقارير الاستخبارات أتت بمئات البلاغات عن اختفاء كراسي في مختلف أنحاء البلاد. وسرعان ما نُوقش الأمر في البرلمانات العالمية ومراكز البحوث والأمم المتحدة، وعُقدت المؤتمرات والاجتماعات المستعجلة، ودُعي العلماء والمفكرين ورجال الدين والدجالين. وكل هؤلاء ظلوا وقوفا بقلق وتعب لمناقشة هذا الحدث: العالم ما بعد الجلوس .هذا إضافة لصعوبة الطريقة التي جاءوا بها، إذ كانوا واقفين داخل الطائرات لعدة ساعات، ومتيقظين جدا لبعضهم في حال قرر أحدهم أن يجلس فيختفي الكرسي ثم تنثقب الطائرة نفسها. ولم أحدثكم طبعا عن عشرات الطائرات التي انثقبت في ذلك اليوم وتهاوت في الأجواء، مئات السفن التي ذهبت إلى أعماق المحيطات في صمت، آلاف الناس الذي ماتوا في نومهم دون أن يدركوا أنهم ماتوا، وربما

إلى الأبد لن يعرفوا. وعلى أي حال، لم تكن نقاشات الاجتماعات والمؤتمرات والورِش المعدة لهذه الظاهرة من قبل الحكومات بأفضل من نقاشات الدكاكين والقهاوي والمواصلات، إذ كانوا -كما كل الناس- يتحدثون عما لا يعرفونه. هذا لو سلّمنا بأنه كانت هناك حكومات خلال ذلك اليوم، فالجميع كان يقف عاجزا أمام هذا الغائب الأكبر، الجلوس، مازالوا يتذكرونه ويتخيلونه، ذلك الفعل الفيزيائي، أن تتقرفص، أن تنحني، أن ترمي بثقلك على شيء آخر. مع تقدم الوقت نحو العصر، تزايد عدد المنتحرين، وعدد مراكز التنمية البشرية، وعدد الدجالين والمشعوذين المدّعين لإيجادهم الحلول، ثم عند صلاة المغرب كان الدجالون ذاتهم مرهقين جداً من عدم الجلوس، فانفضّ عنهم الناس وحاموا في الشوارع وتساقطوا واحدا وراء الآخر، مستسلمين للنمل. ومع مضي المساء كان الناس يتكلمون بحنين طاغٍ إلى الجلوس، وكيف كان، وانتشرت في كل الونسات بكائيات وصفية غريبة، بعضها كعتاب وبعضها كمديح، لكنها وداعية للغاية، وقراءات شعرية: والجلوس أن تجلس كما يشتهي المقعد ولا تجلس على النمل لأنه واقف ووو». سرعان ما تشقّق الونسات نحيب صافٍ من وهنا وهناك وو.. ثم رأيت ما رأيت: الولد والبنت يتعانقان

ثم يجلسان على الأرض مستسلمين للنمل، عشرة رجال يتماسكون ثم يجلسون معاً ويصارعون النمل معاً في معارك رهيبة، كل النوافذ سُدّت بأجساد بشرية غاضبة ضد الرياح العاتية، مقاومينها بكل قوتهم من أجل لحظة، لحظة واحدة فقط، يحسون فيها بالجلوس، مئات القافزين في النهر من أجل أن يدفع تيار الماء ظهورهم، من أجل ذلك الشعور؛ أنك مستند على شيء ما، دون أن يخذلك، أن تنام دون أن تموت، العشرات الذين تساقطوا جماعيا من الجبال، من الطابق الرابع، ومن ناطحات السحب، ليس انتحارا، وإنما لأجل استلقاءة في الهواء ولو لثوان ولو..

”كُتب هذا النص منذ عشرة آلاف سنة، وقد مات كاتبه في ظروف غامضة، إذ أكله النمل قبل إكماله الجملة الأخيرة، متحدثا فيه عن هذا الشيء الغامض المسمى بـ ”الجلوس“، ورغم اجتهاداتنا التاريخية ودراساتنا وأبحاثنا المطوّلة لم نعرف أي شيء يعني سكان العالم القديم لدى حديثهم عن الجلوس، توقّع البعض أنه إله قديم كانوا يعبدونه، أو نوعاً من أنواع الصلوات، أو فاكهة غريبة، أو نوعاً من النبيذ أو حيواناً منقرضا، أو اسما من أسماء الجنّ الكثيرة».

شَهَقَات أربعمئة وجه

صارَ شخصين، ثم أربعة ثم ستة.. ثم.. ثم.. توقفوا عند رقم بثلاث خانات، حيث تراكموا وضاقت بهم الغرفة، تكسّرت محتوياتها تحت كل هذه الأرجل والأيدي والبطون، تنفس أحدهم الصعداء لما فتح ضلفة الدولاب وأدخل رأسه متحررا قليلاً من هذه الزحمة، دخل ثلاثة تحت السرير، كسر أحدهم لمبة الحائط ليُفسح متّسعاً لظهره، المروحة تَعَلّق فيها شخصان فسقطت بهم محدثة فوضى عجيبة في المكان، هذا وقع على ظهر هذا ثم هذا ثم هذا، ولم يكن بالغرفة متسع للسقوط حتى! كانوا يلبسون نفس الملابس، ولديهم نفس قصَّة الشعر، وكانوا يتلفتون بطريقة غريبة ناظرين إلى بعضهم، كانوا هم بنفسهم بعضهم، غير مصدقين ما يرونه أمامهم الآن، يندهشون بنفس الطريقة، ثم يندهشون من اندهاشهم بنفس الطريقة، كان كل واحد منهم ينظر في وجهه عند الآخر، ثم يلمسه ليتأكد أنها ليست مرآة، سأل أحدهم الآخر ”ما اسمك؟»، كان اسمه أحمد، كذلك اسم السائل، والذي بجواره، والذي بجواره، كلهم كانوا نفس

الأحمد. ولزمهم الكثير من الوقت ليقتنعوا بهذه الحقيقة البسيطة. لكن من هو أحمد الأولي؟ كل واحد قال أنا، كل واحد انفعل غاضبا مدافعاً عن أحمديته، كلهم غضبوا في نفس اللحظة لتهتز الغرفة، فيرتعدون معاً أيضا. أحدهم غَضِب أكثر فتنفس المزيد من الأوكسجين ليحسّ البقية بالاختناق، التفتوا في نفس الوقت باحثين عن النافذة، تململوا لتصطدم الأيدي بالأيدي والأقدام بالأقدام. ويعلَق لُعاب هذا في وجه هذا، وقدم هذا في وجه هذا، وليتقاسموا العَرق المنهمر من أجسادهم حتى ليخلق بينهم مساراتٍ يجري فيها، من خد لخد ومن يد ليد. صاح أحدهم ''أين النافذة؟» وليفتحوها استلزمهم الأمر إعادة تنظيم أنفسهم بطريقة معينة ليفردوا مساحة لجعل مصراعيها مشرعين، بما أنهم أكثر من أربعمئة شخص في غرفة واحدة ملأى إلى سقفها. وحين اختنقوا أكثر وبدأ بعضهم بالصراخ والهلع صاح أحدهم بأن يصبروا، ثم بدأ بتنظيم حركة إخلاء المساحة وكأنّه يحل لغزا؛ قدم هذا تتحرك باليمين، ثم بطن هذا، ثم رأس هذا، ثم خمسة أشخاص يتزحزحون معاً شمالاً، ثم يميناً قليلا، ثم ثلاثة يباعدون أرجلهم. ولما انفتحت النافذة وتعالت أصوات الشهقات كان الذين بأسفل الغرفة يلفظون أنفاسهم الأخيرة، لولا استمرار حركة

تنظيم الصفوف حتى استطاعوا فتح ممر هواء لهم بالأسفل، فشهقوا شهقات الحياة. وبعد أن حلّوا مشكلة الأوكسجين كان عليهم أن يحلوا مشكلة وجودية أكثر تعقيداً:

– ”من نحن، وكيف نحن، وما هذا العبث؟»

أحدهم في ركن الغرفة العليا كان يتمتم بشيء قبل أن يصدح به ”أعوذ بالله من هؤلاء الشياطين»، انفجر البقية ضاحكين إن كانوا هم الشياطين المقصودون فعلا، ولماذا ليس هو الشيطان بالذات.

– ”ربما نقص عددنا فعلا بعد استعاذته»

فتلفتوا بطريقة مريبة باحثين عن نقص ما، اقترح أحدهم بأنهم ربما داخل حُلم الآن اقترح أحدهم بأنهم كلهم أحمد واحد، ولكنه منوّم مغنطيسياً لذلك يشعر بأنه منقسم لأربعمئة أحمد، فأتبعه آخر باقتراح؛ أن يصفع كل شخص جاره على خده، علّ أحمد النائم يصحو وينتهي هذه الازدحام، حصل صمت مخيف للحظة، ثم نُفّذ الاقتراح بسرعة غريبة، لتتبعه حرب من الصفعات الانتقامية المتتالية حتى اهتزت الغرفة، أتت في تلك اللحظة صرخات منفعلة بشدة من الصفوف المثقلة بالوزن في أرضية الغرفة تسأل أصحاب

الصفوف العليا بأن يسكتوا عن الكلام الكثير، ويبدلوهم أماكنهم ليرتاحوا قليلا، لكن أصحاب الصفوف العليا رفضو المقترح، وقالوا بأن يلتزم كل شخص بمكانه الذي وجد نفسه فيه، ثم حصل تدافع وتصارع بين الطبقتين، ليظهر رأي أصحاب الصفوف الوسطى ويعيدوا الهدوء للغرفة، مطالبين بضرورة التفكير في حل عملي للموقف كله وليس مجرد تبادل أماكن. اقترح أحدهم حلا بسيطا جدا وهو أن يفتحوا الباب ويخرجوا، لكنه اصطدم أولاً باستحالة هندسية لتنفيذه، فالمساحة التي أُفرغت لفتح مصراع النافذة يلزم توفير ثلاثة أضعافها لفتح الباب، خصوصا أنه أسفل الغرفة الممتلئة بهم، لذلك اقترح أحدهم أن من أراد الخروج فليخرج عبر النافذة ويسقط من الطابق العاشر.. مدّ أقربهم من النافذة رأسه، وألقى نظرة ثم قال إن السقوط من الطابق العاشر لا يعني الموت دائما ولكن ماذا سيحدث للشارع نفسه، كيف سيكون رد فعل الناس وهم يشاهدون أحمد يسقط، ثم أحمد آخر يسقط فوقه، ثم أحمد آخر يتبعه .. كم عددنا؟!

ضحك أحمد القابع بجوار مصباح السقف:

– ”ليس المارّة هم المهمّون، ولا الشارع، بل نحن؛ كيف

سأخرج من هنا مع أربعمئة نسخة من نفسي؟! كيف سأعيش حياتي، من أنا؟ هل تستطيع أمي أن تحبنا كلنا، لن يحملنا البيت حتى، أربعمئة منا سيغادرون البيت إلى الأبد، أبي سيبلغ عنّا الشرطة غالبا، الناس سيطاردوننا في الشوارع، نحن إلى الآن في مأمن داخل هذه الغرفة ولكن لو خرجنا فقد انتهى العالم كما نعرفه..

أتى صوت من داخل الصفوف الوسطى: ''أنا أعتقد أنني أحمد الحقيقي»، فقال الذي بجواره: ''بل أنا هو الحقيقي»، ثم الذي بجواره، ثم الذي في الركن والذي بجوار المروحة، لتتكاثر الجملة إلى أن أوقفهم أحمد بجوار النافذة بسؤال: ''من منكم أحمد غير الحقيقي؟، حلّ صمت غريب على الغرفة، فجاء صوت من المجاور لمصباح السقف قائلا:

– ''ادّعاء الحقيقيّة هو ادّعاء كاذب بالضرورة، لأنه آتٍ من رغبة الدفاع عن النفس، فلو اعترف أحدنا بأنه غير حقيقي فما الذي يمنعه من أن يرمي نفسه عبر النافذة ليموت، فحتى لو لم نكن حقيقيين فالموت يظل شيئا.. مرعبا''.

ليردف المجاور للنافذة:

''ليس هناك أحمد حقيقي أصلاً، فحتى أحمد الحقيقي نفسه

إذا ادّعى بحقيقيته فهو مطالب بإثباتها، فكيف سيثبتها؟»

حين هم أحدهم من داخل الدولاب بالكلام، جاءتهم صرخة من الأعماق السفلى للغرفة أن اسكتوا عن هذا الكلام الفارغ، وقال -متحدثا بالنيابة عن طبقته- بأنهم غير مهتمين بهذا النقاش الفلسفي عمن هو أحمد الحقيقي، طالما أنهم يصارعون من أجل الأوكسجين هنا، ومن أجل ألا تتكسر عظامهم تحت هذا الضغط، ثم بدأ نقاشا فلسفيا من نوع آخر قائلا: "لماذا أنتم تستمرون بالأعلى، فيما نبقى نحن هنا متحملين أوزانكم الثقيلة هذه، ألسنا نفس الشخص ونستحق القليل من العدل والراحة، فأكّد أصحاب الصفوف السفلى على كلامه، وتململوا معا لتهتز الصفوف كلها، وترتجف الغرفة، علّق أحد القريبين من السقف بأن تقاسم الثقل لن يفضي لأي شيء، طالما أن المشكلة قائمة وهي عدم منطقية الموقف كله، فالأفضل هو التفكير في حل سريع للموقف بدل أن نتقاسم التعب ويطول التفكير!. لكن أحمد جوار النافذة كان له رأي آخر:

- "ربما الموقف بحد ذاته هو اللغز، حيث يكمن الحل في طريقة تعاملنا نحن الأربعمئة نسخة منا مع أنفسنا في

مثل هذه الغرفة المكتظة، كيف سنتقاسم التعب، وكيف سنتقاسم الأوكسجين، وكيف سنصبر مع مرور الوقت ونصمد».

فاقترح الذي بجواره بأن من يريد أن يبدل الأسفلين فليبدلهم، ولا أحد وافق على هذا الاقتراح، بينما زاد تململ الأسفلين، فقال أحمد بجوار النافذة إنها مشكلة جماعية ولابد من تجريب حلول جماعية لها، ليقول أحمد من داخل الدولاب بأنّا لو فكرنا فيها قليلا فلا أظن أنها مشكلة، ثم زحزح رأسه خارج الدولاب قليلا: ”هنا يوجد حوالي أربعمئة أحمد، بمعنى أربعمئة فرصة للعيش في هذا العالم بطريقة مختلفة، ألا تحسون بأننا ربما خيارات كان يتمنى أحمد لو اختارها في حيوات مختلفة، ربما نحن هي هذه الحيوات المختلفة، فانا مثلا أحمد الذي أكمل الطريق دون أن ينزل من الحافلة، والذي بجواري هو أحمد الذي نزل، أحدنا أحمد الذي سافر، وآخر أحمد الذي لم يسافر“.

– ”هل نحن كل الخيارات الممكنة في حياة أحمد إذن؟»

– ”الخيارات التي لم يخترها، الذين لم يكونهم أحمد؟».

قال أحدهم من داخل الصفوف الوسطى بأنه سمع بشيء

كهذا في العلوم، وبأنها تسمى ميكانيكا الكم؛ أي الخيارات اللانهائية لحياة واحدة! أثناء ذلك أتت صرخة من الأسفل، هذه المرة مصحوبة بتدافع وضرب لجيرانه قائلا بأنه لن يتوقف ما لم يبدلوا له موقعه، ضحك المجاور لمصباح السقف قائلا له: ”ثورتك هذه لن تصل لأي مكان أبعد من ضربك لجيرانك ثم ضربهم لك»، ضحك أصحاب الصفوف العليا وهم يسمعون هذا الضرب بين الأسفلين، قبل أن يصرخ أحمد الثائر في جيرانه بألا يردّوا له هو الضرب، بل للأشخاص الأعلى منهم، ثم الأعلى منهم وهكذا حتى ينتقل ويصل إلى الصفوف العليا ويصلهم احتجاجنا، وحينها تغير اتجاه الضربات، وتدافعت كنافورة نحو الأعلى، لينتظرها أصحاب الصفوف العليا بخوف، طامحين بألا تتواصل هذه الفكرة اللعينة، لكنها تواصلت حتى وصلت أحمد بجوار لمصباح السقف، فاستسلموا فورا.

نزل أصحاب الطبقة العليا ليتبادلوا الأماكن مع الطبقة الوسطى ثم السفلى، لينزل عليهم ثقل المجموعة كلها، متحسرين ونادمين على مفارقتهم لسقف الغرفة المريح، ومتنفسين بأسرع طريقة ممكنة للصراع على الأوكسجين، بينما تنفس أصحاب الطبقتين الوسطى والعليا الصعداء حاسّين بحرية أكثر، وبظهور خفيفة، وبرغبة في التفكير

والتفلسف!، لكن في تلك اللحظة بالذات كانت هناك صدمة تتكون عند الطبقة السفلى، فبينما ما زال التبادل جاريا، ظل بضعة أشخاص بأماكنهم، مستلقين في قاع الغرفة، في البداية ظنوهم نياما، ثم بأقصى تقدير مغمى عليهم، لكن المفاجأة كانت صاعقة جدا، كانو ميتين!

تفقدوهم واحدا وراء الآخر دون أن يحسّوا بأي نبض، صدورهم ووجوههم كانت هادئة تماما، ضجّت الغرفة بالشهقات والهلع، ثم بالصمت القَلِق، ثم بالململة التي تحولت لحركة متموجة في كل الغرفة، خصوصاً الذين نزلوا للتو من الطبقة العليا ليشاهدوا هؤلاء الملتصقين بهم أمواتاً هكذا، بالأحرى يشاهدون أنفسهم أمواتا، وحين خرجت منهم صرخات فجائية، كان لابد لأحد أن يصرخ فيهم بالمقابل ليعيدهم لرشدهم قليلا..

– ”ماهو الغريب عليكم، الموت، أم الجثث؟ نحن الآن أربعمئة نسخة من نفس الشخص في غرفة واحدة فهل هنالك شيء أكثر غرابة من ذلك؟! لو رآنا أي أحد بهذه الوضعية سيُجن إلى الأبد، لو رآنا الشيطان نفسه سيُجن، فاثبتوا قليلا ودعونا نفكر في حل لهذا الجنون».

لكن أحد أصحاب الطبقة الوسطى ردّ عليه بأن الميتين

بالأسفل كانوا جيراننا إلى قبل قليل، وصبروا وماتوا صبرا بسببنا.

– ”وما الذي يعنيه الموت لك وأنت نسخة من أربعمئة نسخة؟ ها؟ هل تعتقد أن لك قيمة، هل تشعر بأن لك كينونة يمكن أن تنافس بها أحمد الحقيقي؟!»

رد عليه صوت من الطبقة السفلى: ”وهل أنت الذي تحدد القيمة، هل نصّبت نفسك أحمد الحقيقي الآن بمجرد أعتلائك قمة الغرفة؟»

صاح المجاور للدولاب قائلا إن هناك جثثاً بيننا أفلا نحترمها قليلا؟

– ”نحترم الجثث ونشتم الأحياء!»

– ”على أي حال بعد أن نحترمها ربما فكرنا فيما نفعله بها»

– ”الأجدر أن نفكر فيما نفعله بأنفسنا أيها الغبي»

انتشرت رائحة عفنة، وكان واضحاً أنها ستصل لمرحلة عدم الاحتمال خصوصا للطبقة السفلى المختنقة سلفاً، ثم ظهرت رغبات جديدة تماماً؛ أحدهم قال بأنه يريد التبول، فحذّره

جيرانه من أن يفعلها، بينما قال أحمد بجوار مصباح السقف إنه لو فعلها شخص واحد فقط فسيتبعه الجميع انتقاما، وستصبح الغرفة غير قابلة للحياة فعلياً.. وذلك كان إنذاراً بضرورة الإسراع في إيجاد حل. أحدهم اشتكى العطش، آخر أصابته حكّة شديدة وحين مدَّ يده ليحكها اضطّر لدفع أيادي آخرين، والأيادي دفعت أيادٍ مما أخلّ بتوازن الجميع واهتزت الغرفة مجددا، ولم تعد مكانا صالحا أبداً لأربعمئة أحمد، بل كانت على مقربة من انفجارها. فبعد أن كانوا يفكرون في وضعهم، باتوا الآن محاصرين بالضِيق، وبرغبات الجوع والعطش، وبالتعب، وبالجثث، وبتمردات متفلتة لإشعال فوضى، وبحركات قرص وتدافع، صرخ أحدهم بأنهم نفس الشخص، وبرغم ذلك لا يستطيعون أن احتمال أنفسهم لساعة واحدة؟ فقال أحدهم من الصفوف الوسطى بصوت خفيض وقَلِق: ''أحمد كان لا يحتمل نفسه أيضا، أتذكرون؟ ما كان باستطاعته الجلوس بمكان لساعة دون أن يشعر بالضِيق».

صمتوا متأملين هذه الملاحظة.

– ''نعم نعم، سرعان ما كان يشعر بأن المكان خانق ولا يحتويه، فيذهب نحو مكان آخر».

أخذو نفسا عميقا مع بعضهم في نفس الوقت، لتنقص كمية الأوكسجين دفعة واحدة.

– ”هل تقصدون بأن المكان يضيق عليه كما تضيق بنا هذه الغرفة؟!»

– ”نعم، دون أن يستطيع الخروج، مثلنا تماماً، فنحن لا نستطيع الخروج لأسباب هندسية، أما هو فلأنه سرعان ما سيشعر بالضيق في كل مكان يذهب اليه».

– ”هل تقول إن أحمد لم يكن سعيدا في حياته؟»

– ”سعيد؟! .. سعيد؟»

قالها عدة نسخ من أحمد ضاحكين. وتتالت الضحكات وتضاعفت من عدة زوايا في الغرفة.

قال المجاور لمصباح السقف إن أحمد شعر بالسعادة في لحظات معينة فقط من حياته، الباقي للحزن والقلق، والثقل.

– ”مثل هذا الثقل في أسفل الغرفة؟!»

تلفتت وجوه أحمد الكثيرة بغرابة لبعضها..

– ”هذه الاستنتاجات تقول بأن وضع الغرفة الحالي وما

يحصل فيها هو.. هو محاكاة وإسقاط هندسي لحياة أحمد، نحن حياة أحمد الآن، ألا تشعرون بذلك؟»

”أحمد أيضا كان يشعر دائما بأنه غير حقيقي، مثلما يشعر أي واحد فينا الآن بأنه ليس أحمد».

صاح فيهم أحمد بجوار النافذة بأن أحمد لم يكن هكذا، بل يحب الحياة، ولديه حبيبة، ولديه أصدقاء جيدون.. فقال أحدهم من الصفوف الوسطى بأن أحمد يشك بأن حبيبته تخونه، فقال أحمد بجوار النافذة:» لكنه مجرد شك غبي»، فقال المجاور لمصباح السقف: ”أنا ايضا أشك»، وقال أحمد من الصفوف الوسطى: ”نعم أنا أيضا أشك فيها»، وتكررت الجملة من أركان مختلفة من الغرفة. وأضاف أحدهم: ”ثم أن أصدقاءه خذلوه أكثر مما ساعدوه». أومأت العديد من الرؤوس موافقة.

– ”كان يشعر بأن هناك أشياء كثيرة ماتت في داخله، أشياء جيدة ماتت إثر تحمّلها لِثقل أشياء أخرى، كما مات هؤلاء بالضبط بالأسفل، وكما فشل أحمد في التخلص منها فنحن أيضا لن نستطيع التخلص منها».

– ”اسكتوا عن هذا الكلام الفارغ، فليست هذه الغرفة الكئيبة حياة أحمد، ألم تروا كيف كان يجري في المظاهرات،

كيف يحوم مع أصدقائه سعيدا، كيف يقبّل حبيبته؟»!

سكتوا للحظة، ثم بدأوا يتذكرون الأشياء التي كان يحبها أحمد: الوطن، الربع الأخير من الليل، الشعر الغامض، المشروبات الغازية، بدايات العلاقات، الزهور الصغيرة جدا، الأصدقاء، السجائر الرديئة، الأغاني البذيئة»

ضحك أحمد بجوار الدولاب وقال:

"بدايات العلاقات وليس الاستمرار فيها، كذلك بدايات الثورة فقط، الشعر الغامض لكي لا يفهمه أحد، ثم إن أحمد كان موسميا في الحب، يعود ليكره دائما نفس الأشياء، حبيبته ستخونه، هو يعرف أنها ستخونه، حتى لو لم تخنه بعد سيأتي يوم وتخونه فيه، الأصدقاء سيتبدلون ويتبدلون، أحمد كان يشعر بأنه يريد مئة شيء في نفس اللحظة، لا يستطيع مقاومة هذا الشعور، كان مزدحما بالقلق والرغبات وأضدادها مثلما نحن الآن».

أتى صوت في تلك اللحظة من خارج الغرفة، بدأ كأنة خفيفة قبل أن يتحول لبكاء غير مُسَيطر عليه ثم لعويل ثقيل جدا، تلفتت الأربعمئة رقبة يمينا وشمالا، متكاثفة عنها دفقات العرق لتغير جو الغرفة نحو رطوبة واضحة، ثم عَبْرة خنقت العويل بالخارج قبل أن ينهمر مجددا ويتتوج بصرخة

أنثوية حادة: ”لماذا ذهبت يا أحمد؟»

تنقلت بينهم القشعريرة حين سمعوا لفظة أحمد داخل هذا السؤال الغريب، تهامسوا: ”أين ذهب أحمد؟ أين ذهب؟، نحن أحمد! كلنا أحمد».

لم يكن أحد منهم واثقا بأنه أحمد فعلا في هذه اللحظة، خصوصا حين عاودت البنت بالخارج التساؤل:»لماذا يا أحمد لماذا؟»

انتظروا قلقين جواب أحمد إن كان موجودا، أو إن كانت تتكلم معه عبر الهاتف مثلا، أو ربما تصيح له من نافذة ما، لكنه لم يجب، وما كان موجودا ليفعل، فأتى سؤال ثالث منها بصوت خفيض وباكٍ: ”لماذا انتحرت يا أحمد؟»

توقفت القلوب الأربعمئة داخل الغرفة للحظة، قبل أن تتواصل الدقات راكضة متسارعة، تململت أطرافهم، حاولت كل يد لمس وجهها، رأسها وصدرها، حكّة مزعجة انتابت الجميع، أنفاس متسارعة أنقصت الأوكسجين بصورة ملحوظة، لم يعرف أحمد جوار النافذة أو السقف أو جوار الدولاب ما يقول، انطلقت شهقات الدهشة من مواضع مختلفة، أحسّ كل واحد برغبة أن ينقلب لجنبته الأخرى، أن يقول بأنه حي ولم ينتحر، لكن غشيهم ذلك التلاشي

الذي صدح به أحمد بجوار الدولاب: ''إذا كان أحمد قد انتحر، فمن نحن؟!»

– ''هل هذا هو القبر أم ماذا؟ ''

– ''اسكتوا.. أيّ انتحار و أيّ خزعبلات؟ ثم إننا أربعمئة نسخة من نفس الشخص فما الذي يجعلنا نصدق تلك البنت ولا نفترض بأنها امتداد لهذه الخزعبلات؟»

– ''أنت مستعد إذن للتشكيك في عالمك كله لمجرد أن تثبت بأن عنصرا واحدا فيه هو وهم أيضاً، ألم تفهم بعد ما يحدث هنا أيها الغبي، نحن عالم أحمد وقلقه وخياراته وأفكاره وإحباطاته وإرادته».

قال أحمد بجوار الدولاب: ''ولا شك أن أحمد بجوار النافذة هو ''إرادته'' هذه، رغبته في الحياة ومجابهتها، ولا شك أن هذه الإرادة انكسرت انكسارا عظيما حتى يستسلم وينتحر».

سكتوا.. التفت كل من استطاع الالتفات لأحمد بجوار النافذة، كان الهواء عليلا، لكنه يصطدم بجسده الراجف وعينيه المتجمع في قاعدتها الدمع، مسحه ورفض أبدا أن يعترف بقولهم.

العويل من خارج الغرفة كان شديداً هذه المرة، وسؤالها كان الأقسى: ”لماذا سقطت من تلك النافذة يا أحمد؟»

التفت الأربعمئة رأس نحو النافذة، حتى الجثث نفسها التفتت معهم، سالت الدموع من بعض العيون ثم صوت بكاء من ركن الغرفة الشرقي ثم الغربي ثم الصفوف الوسطى فنهرهم من بجوار الدولاب أن اسكتوا. ثم التفت لأحمد بجوار النافذة وأشار للنافذة قائلا بصوت هادئ» :الآن نعرف طريق خروجنا».

سدَّ طريق النافذة بجسده الغاضب وقال»لا».

أتى صوت من الصفوف السفلية بصوت متعب ”أحمد الحقيقي مات، فهل سنموت نحن دون أن نعرف من نحن؟»

– ”لو عرفنا من نحن لانفتح الباب من تلقاء نفسه دون حوجة للمساحة، أو لنزلت الغرفة من الطابق العاشر إلى الأرضي، يبذل الناس عمرا كاملا ليعرفوا من هم، وأنت تريد أن تعرف في نصف ساعة».

فقال الصوت من الصفوف السفلى: ”ربما نحن الآن لحظة أحمد الأخيرة، ما قبل السقوط، حين تشظّت روحه وتقطعت، لأربعمئة قطعة ربما؟ حين أحسّ بأنه مخنوق

ومزدحم، وغريب، ومليء بالخيبات، مثلنا، هل نحن أربعمئة خيبة واجهها أحمد في حياته؟، أو أربعمئة رغبة مُجهَضة، أو أربعمئة محاولة للاستمرار، أو أربعمئة محاولة للانتحار».

صمتوا، والتفتوا جميعا بلا ترتيب للنافذة، ولأحمد الواقف أمامها بوجهه الغاضب الصامت، ليبتسم أحمد هازئا من داخل الدولاب ثم يقول:

”يتملكني إحساس ما، غريب، بأن كل شيء مكرر، ليس نحن ولكن الجدال نفسه، ماذا لو كنا مجرد يوم عادي من حياة أحمد، ليست الأيام الصعبة أو المبهجة، بل الأيام العادية، وفيها يشعر أحمد بأن أربعمئة شخص يتجادلون فعلا، عن جدوى كل شيء، ربما خضنا هذا النقاش ألف مرة، الذين ماتوا بالأسفل ربما ماتوا ألف مرة، حتى كلامي هذا ربما قلته فيما قبل، ربما نحن الآن صدى ما كان بالأمس، قبل أن يسقط أحمد من النافذة».

البنت بالخارج أحست بحركة داخل الغرفة، ارتجفت للحظة وشهقت بصوت عالٍ ثم جرت نحو الباب ودفعته، كانت الغرفة فارغة جدا، لكنها لا تذكر بأنها تركت النافذة مفتوحة.

موكب الآلهة

في ظهيرة؛ خارج الزمن بلا شك، قرّر الرب بعث كل الكائنات التي عُبدت يوما ما. كل المخلوقات التي نالت حظ اتخاذها كآلهة من قبل البشر، ولو ليوم واحد، ولو لساعة، ولو للحظة حُلم أو سكر، أو شطح. ثم بمجرد ما جاءت ''كن كانت». صحت من نومتها الأزلية هائمة تتلفت، انتظمت بعفوية في صف لانهائي دون أن تدري لماذا هي هنا ولماذا هي هكذا، وكان من الصعب الحفاظ على صف متوازي بسبب تنويعاتهم واختلافاتهم الكبيرة، أحجام وأطوال مختلفة، أشكال متباينة، ثم هناك أشكال غير معتادة، مثلا يومي السبت والأحد، وهناك يوم الخميس الواقف في آخر الصف، ثم هناك الزمن ذاته والذي لم يجد بعد مكانا مناسبا بسبب شكله المعقد وطبيعته غير القابلة للتوقف، فظلّ متحركا هكذا بين الصفوف، ومن حسن حظه أنه وجد رفيقا على نفس هيئته: نهرالغانج المعبود من أحد طوائف الهند، إذ عانقا بعضهما: الزمن والنهر، ثم جريا معا وتسابقا محتفيان بهذا التشابه الغريب، لكن

فراقا حتميا كان ينتظرهما، فالنهر يفتقد قدرة الزمن الخارقة على العبور خلال كل شيء، برغم عبوره لعدد من الجبال والسهول المقدسة لكنه توقف عاجزا أمام جبل الأولمب، ليعبره الزمن وحيدا وحزينا، وملقيا نظرة لما وراءه من آلهة الإغريق، كان هناك أبولو إله الشمس والموسيقى، ويبدو الآن رجلا عاديا وضائعا بينما يبحث عن قيثارته، بجواره أخته التوأم آرتميس إلهة القمر والصيد، ثم أثينا وأريس إلهي الحكمة والحرب، يحاولان الآن -دون استطاعة- زحزحة الجبل لتوازي الصف، وفي اللحظة التي قارب فيها الزمن عبور الأولمب رافقه كائن آخر: العاصفة، التي بدت مندفعة وهوجاء ومجنونة، وقع الزمن سريعا في غرامها وحلّق معها عاليا، إلا أن فراقا حتميا انتظرهما أيضا، حين حلّقا فوق المئات من الكتب، فتسببت العاصفة في اقتلاع الأوراق وتطايرها وتبعثرها، ليغضب الزمن دون أن يعرف سرّ غضبه، فمجرد رؤيته للكتب هز فيه أحاسيس أليفة، وانتابته الرغبة في إبطاء حركته وتناول كتاب منها وفتحه، وكأنما ينظر لمرآة، وكأنما يقرأ نفسه في هذه الصفحات، مما شجعه على اصطحاب عشرات الكتب في طريقه الطويل، أما النهر الذي قفل راجعا عند جبل الأولمب، فرأى عشرات الحيوانات في طريقه، أكثرها الثعابين التي كانت تزحف مثله

بتشكيلات متنوعة، نساء برؤوس ثعابين وثعابين برؤوس نساء، ثم عشرات الأبقار والجرذان، التي هربت بمجرد ظهور نمر واحد، والأبقار لا تعرف لِمَ خافت، فيما جهل النمر سر شجاعته، وفوق النهر حلقت أسراب من الغربان والعنقاءات والديكة العملاقة، ثم سهم مفاجئ يسقط أحد الديكة على النهر، فيلتفت الجميع نحو مطلق السهم، الإله الروماني أبولو، إله للموسيقى والطب، وما هو أهم، إلها للحقيقة، ولا يقول إلا صدقا، لذلك أحس النهر برغبه لسؤاله: لماذا نحن هنا يا أبولو؟ فرد أبولو قائلا: لا أعرف. أثناء ذلك اندفعت نحوه الديوك العملاقة غاضبين على قتله لزميلهم، بينما استنصر هو بباقي زملائه من آلهة اليونان: جيوبتر الملك الأكبر، المتوج على كل الآلهة الرومانية، وهو الآن رجل عجوز ملتح وغير مفيد في صراع الديكة هذا، أما جونو فقد كانت غير مناسبة تماما، فهي إلهة الأنوثة والزواج، ومنها اشتق شهر يونيو الذي كانو يعتقدون أن الزواج فيه يكون زواجا سعيدا، لكن الموازين تساوت حين برز مارس وفنيرفا وفلكانوس آلهة الحروب والمحاربين، فغادرهم النهر سريعا قبل أن يلوثوا مياهه بقتيل آخر، غير أنه وجد المشاكل والفوضى في كل مكان، شُلة آلهة الفراعنة بقيادة ''آمون راع» تصارع شُلة الآلهة السومرية، وقطيع

من الكلاب يطارد قطيعا من القرود، واللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى كن في صراع حام بالأيادي مع مثيلاتهن من أصنام العجوة، لكن المشكلة الأغرب كانت بين الشمس والليل، كلاهما يكره الآخر لكنهما لا يستطيعان الاقتراب من بعضهما؛ لأسباب فيزيائية، فصارا يتبادلان الشتائم فقط، وكانت الشمس تحفظ أكبر قدر من الشتائم الحارة بينما الليل حزين ومسكين وهادئ لذا انسحب سريعا، ليُهدأ من روعه الشعراء والعشاق والقمر المتحلقين حوله، معجبين ومذهولين تماما من جماله وهدوءه واسوداده الساحر هذا، هاربين من فوضى المكان ومشكلاته الكثيرة، خصوصا بعد انتشار إشاعة عن سر هذا التجمّع، وهو أنهم على أبواب الدخول إلى جهنم وبئس المصير، فرحت نار المجوس واشتعلت أكثر حين سمعت بهذه الإشاعة، بينما طارت العصافير بأنواعها عسى أن تجد مخرجا، لكن الشيطان الأكبر إبليس كان له رأي آخر، إذ قال بصوت واثق: ”هذه مجرد إشاعة خاطئة، لسنا ذاهبين إلى جهنم»، سألوه لم هو متأكد فقال: ”لأني جئت للتو من هناك» .وسرعان ما انتشر كلام إبليس تتلوه إشاعة أخرى وهي أن إشاعة الذهاب لجهنم ابتدعها بلوتو؛ إله الكآبة عند الرومان، ثم ما زال خوف الكائنات حتى انقلب إلى فرح

حين خرجت إشاعة أخرى تقول إن هذا المكان هو الجنة، وقيل إن مصدر هذه الإشاعة هو بورخيس المبتهج جدا، إذ صاح فجأة أثناء تجوله داخل مكتبة لا نهائية على ظهر نمر ''إنها الجنة بلا شك»، ولكنها كانت مجرد إشاعات، لذا انطلق النهر باحثا عن أخبار مؤكدة ليتوقف مذهولا أمام منظر غريب، مجموعة من الكائنات التي تبدو غير مبالية بالجنة والنار وكل هذه الأخبار، بل هي مجتمعة حول مولود صغير، تعاين نحوه باندهاش وصمت وتعجب، وقد كانو آلهة الولادة» الإله ''كونينال'' الذي يهزّ المهد، و»رومينا» إلهة الرضاعة، و»فابيونوس» التي تعلمه الكلام، و»ستاتلينوس '' التي تعاونه في محاولاته الأولى للوقوف، وسرعان ما تركهم الطفل وحبا نحو حضن أمه فتبعوه، تاركين النهر في حيرة من أمره، لأول مرة منذ وقت طويل يتوقف ليفكر في جريانه العبثي هذا، ثم فجأة يلتفت ليمينه ليجد ملاكا يأمره أن يقف في الصف بانضباط!. كان ذلك بداية تنزّل أفواج الملائكة إلى المكان لتنظيم الصفوف بعد عجزهم عن تنظيمها بأنفسهم، ومع الملائكة تنزّلت الأخبار المؤكدة عن سرّ هذا التجمع الغريب، إذ هتف فيهم أحد الملائكة قائلا: ''أنتم الآلهة الخاطئة، أنتم الكائنات التي اتخذها بعض البشر كآلهة في الحياة الدنيا على مدار التاريخ الإنساني كله».. تعالت الهمهمات والاندهاشات والتأوهات،

تلفت فرعون مذهولا وغاضبا من كل هؤلاء الذين شاركوه صفة الألوهية، بينما استقر بصره على هامان قائلا: ''حتى أنت يا هامان»، ضحكت أصنام العجوة بصوت عال، بينما صرخت الجرذان وتساقطت مغمى عليها من الدهشة، كذلك تساقطت بعض النجوم من التعجب، وقد كانت تعتقد في الدنيا أنها بعيدة جدا ولن يلاحظها أحد، تنهد بوب ديلان بلا مبالاة وقال: ''جماهيري الحمقى، لقد أساءوا فهمي تماما»، أما بورخيس فقد لكز نمره الأصفر قائلا: ''لو كنت أعلم أنهم سيتخذوني إلها لكتبت شعرا أفضل»، الذهب والفضة والياقوت وكل الأحجار الثمينة تسآلت محتارة، أما حجر النرد فرمى نفسه لكي يعرف رأيه، الفتيات الجميلات اكتفين بالابتسام، كأنهنّ كنّ يدركن ألوهيتهن هذه، أما الأصدقاء المتواجدون فالتفتوا لبعضهم بنظرات حميمية دامعة، كانوا آلهة لبعضهم البعض، كذلك الآباء والأبناء، الأمهات الكثر تذكرنّ أبنائهن، العشّاق كانوا يعرفون ذلك منذ الحياة الدنيا، الفراشة تساءلت: ''لماذا''، الشيطان قال» :إني بريء منهم، إني أخاف الله رب العالمين»، الأفراد من البشر الواقفين وحدهم قيل إنهم كانوا يعبدون أنفسهم، أبو الهول حكّ أنفه، قطرة الندى في الصباح تمنت الرجوع للدنيا لكي تعرف من هذا المرهف الذي كان يعبدها، الحبيبات الخائنات تمنين فرصة أخرى

مع أحبابهنّ الأوفياء لدرجة العبادة. أما الزمن فلم يفهم، والقصيدة الواقفة جوار النهر لم تفهم، والوردة التي تفتحت في الدنيا لخمس دقائق فقط ولم يرها سوى فلاح بسيط غير مهتم لم تفهم، فقال لها أحد الملائكة بعد مراجعة سجلاته: ”الفلاح البسيط لم ينسك، لقد فكر فيك خلال ليال كثيرة»، أومأ الليل إيجابا بينما ابتسم بورخيس قائلا: وهل هناك أجمل من وردة في الذاكرة؟ أما القصيدة المحتجة فقال عنها الملاك بعد مراجعة سجلاته إنها لم تكن جيدة في البداية لكن الزمن ربّى وصقل استعاراتها حتى ازدهرت، تعجب الزمن قائلا:هل أنا فعلت ذلك؟ أومأ كأس النبيذ إيجابا، ونهر الغانج، ومكتبة بابل، وآخيل الذي تذكره هوميرس، لم يُعبد هوميرس ولكن عُبد آخيل، مثل قلقامش الذي لم يستطع أن يصير إلها، لكن حُلمه هو الذي صار، وحجر رشيد الذي احتفظ بكل آلهة الفراعنة دون أن يصير واحدا منها!.. أثناء ذلك كانت الملائكة قد أنهت تنظيم الصفوف، ثم انسحبوا بالتزامن مع انتشار إشاعة عجيبة أخرى، وهي أنهم على وشك اكتساب قوتهم الإلهية، دون أن تُرفق أي حكمة من هذا الذي سيحدث، وقبل أن يصدقوها أو يكذبوها، أحسوا بالقوة تنساب في أجسادهم، إذ استعاد الشيطان قدرته على الاختفاء، وحرك يوليوس

قيصر الذي صار إلها بانقلاب عسكري جيوشه، بينما رفع آخيل سيفه عاليا، طارت العنقاءات بأجنحة من النار، بينما لمعت الشمس أكثر، وتحرك جبل الأولمب بهزة عنيفة، وواصل فرعون ادعاءاته بأنه الإله الأكبر، وتبعثرت صفوف الآلهة من جديد وتكتلت على بعضها، وكان الوضع خطيرا منذرا بحرب أهلية وشيكة لولا الزمن الذي استعاد قوته أيضا، فجرى سريعا وطوى صفحتهم ورجع المكان فارغا مرة أخرى.. سوى من كتاب صغير، واصلت فيه الأشياء الحدوث.

طبلول الذي يطير

قرروا إغلاق الشوارع، وبدلا عن ذلك على كل شخص أن يحاول الطيران. أعلنت الحكومة ذلك عبر القنوات ومكبرات الجوامع، كان الصوت مترددا قبل إعلانه أن خطابا رسميا أكّد تلك الإشاعات الغريبة عن أشخاص طاروا فعلا، وأن على باقي المواطنين فعل ذلك، لكن قريتنا كانت تعرف ذلك مسبقا. أو على الأقل من كانوا بداخل القرية في صباح الخميس الماضي، وشاهدوا طبلول يحلّق فوق منزلهم، بملابس داخلية فقط، أولا بمحاذاة شجرة دقن الباشا، ثم أعمدة الكهرباء ثم أعلى وأعلى، أخت طبلول استطردت قائلة إن الأمر بدأ منذ أسابيع حين وجدته متشبثا بمروحة السقف، ومرة في رأس البيت دون معونة سلّم، فاتهمه أهله بالسُكر ثم بالجنون. أما هذه المرة فتحكي أمه أنه كان يتسوك بجانب الأزيار قبل أن يرتفع عن الأرض شيئا فشيئا، ليلتفت بعدها لأمه طالبا منها مناولته الجلابية سريعا قبل أن يرتفع أكثر. لكنه واصل الارتفاع بلا جلابية، فأقام أهل القرية اجتماعا عاجلا لمناقشة قضية طبلول، الذي

يطير، وعوضا عن مناقشة هذه المعجزة، اتجهت نقاشات الاجتماع إلى منع طبلول من الطيران، وبذلك منعه من فعل آخر أكثر قداسة، لم يُصَرِح به لهم.

في اليوم التالي اقتلع المروحة من السقف، متذكرا عدد المرات التي كانت ستقتله فيها إثر ارتفاعه المفاجئ، لم يكن طبلول يعرف اللحظة التي سيطير فيها، دائما كانت حدثا مفاجئا، لذلك كان يتحمل عرقا كثيفا يتصبب على وجهه إثر إغلاق المروحة. فكّر كذلك في تركيب سقف مستعار بلاستيكي يكون رؤوفا على رأسه في الارتفاعات المفاجئة، كم مرة ارتطم رأسه بقوة بعيدان ذلك السقف البلدي، بشهادة كل صناديق البندول المتناثرة هنا، وكم مرة اصطدم باللمبة وحطمها، مما دفعه لجلب لمبة أرضية لا يصطدم بها أثناء ارتفاعه، ثم هناك مشكلة سقطاته بعد ارتفاعاته هذه لذلك ملأ الغرفة بسرائر بقية غرف البيت، ووضع على كل سرير مرتبتين، لئلا يموت في إحدى سقطاته، ثم حين خرج من الغرفة وتأمل سماء الحوش؛ طرح لأمه فكرة سقف الحوش أيضا لكي لا يطير فجأة، حسبوا كلفة الزنكي والحديد فتراجعوا عن الفكرة، جلب عيدان طويلة وأحاط بها البيت ثم ربطها بحبال بينها كأسلاك الغسيل، لو طار في أي لحظة سيتشبث بأحد الحبال ليقطع طيرانه، وقد

نجح الأمر فعلا في الأيام الأولى، واستطاع إمساك الحبل في كل مرة يرتفع فيها، غير أن الحبال سرعان ما تهتكت، فيما اقتلع صبية الحي بعض العيدان، ليجد طبلول نفسه في سماء القرية عدة مرات مرتفعا دون توقف. جلده أبوه عدة مرات، وقاده إلى طبيب القرية ثم إلى شيخ القرية فإلى ساحر القرية، لكن بلا فائدة، ففي اليوم التالي كانت أمه تدخل إلى الغرفة لتجده معلقا في السقف، عاجزا عن النزول، خاطت له مرتبة مع السقف لينام فيها، رابطا نفسه بحبل، وكانت تناوله الأكل والماء بعصا طويلة، أحيانا كان يرتفع ليوم كامل هناك دون استطاعة النزول، ولم يكن الارتفاع هو ما يضايقه بالضبط، بل التفاصيل، كيف يذهب للحمام مثلا، كيف يقضي حاجته، ثم إنه لا يستطيع أن يستقبل ضيوفا بتلك الحالة، ولا أن يحرك رجليه ويمشي مثل الناس، دون احتمال مفاجئ للطيران.

أصبح الناس يصفون البيت ببيت طبلول الذي يطير، ثم سموا القرية: قرية طبلول الذي يطير، ذاع الأمر كمجرد تعبير بلاغي دون أن يصدق الناس فعلا حقيقة أنه يطير، ما عدا من شاهدوه فعلا من أهل القرية في صباح الخميس، فجدته في البيت المجاور كانت أول من رآه، وضحكت ظانة أن الأمر امتداد لتخاريفها، ثم شلة الدكان الذين قالوا: لابد

أنه سكران ويحلم بالتحليق، فنبههم أحدهم بأنه طائر فعلا، تفقدوا لحظتها جيوبهم، تلفتوا وتشمموا رائحة بعضهم إن كانوا هم السكارى، أما الجيران وجيران الجيران فهرعوا لشيخ الجامع، فهو الرجل الوحيد القادر على إيجاد طريقة للتعامل مع شيء ميتافيزيقي كهذا، قرأ سورة الواقعة سريعا، ثم صاح أن ينصرف إن كان شيطانا، لكنه كان طبلول، ثم صاح له عبر مايكروفون الجامع بأن ينزل فورا عن السماء، وبرغم جهله بكيفية الهبوط، نزل طبلول، لكن شيئا ما ظل عالقا في ذهن القرية، وهو نداء الشيخ، فالذين لم يروا طبلول، في الأعلى، وسمعوا كلام شيخ الجامع المطالب لطبلول بأن ينزل من السماء، أصيبوا برعب رهيب جدا. فجأة يتنحنح مكرفون الجامع ويهتف: ”يا طبلول انزل من السماء، انزل أيها الملعون». في تلك اللحظة، رمى الصافي الكأس من يده ظانا أنها القيامة، وسقط علي من حماره على الأرض وكسر ظهره، وتحول العرس في طرف الحلة إلى مأتم بصراخ النسوة وهلعهن، ركض الرعاة عن أغنامهم ظانين أنها النهاية فعلا، ثم شردت الأغنام ذاتها، والحمير، وطيور الغابة، وحافلة المواصلات التي توقفت لتنزل ركابا، وشاحنة الجاز، وباص ترحيل الموظفين من لن ينسوا ما سمعوه أبدا، ”طبلول انزل من السماء ماهذا!». وإثر الرعب

الذي انتشر في جنبات القرية من هذا النداء المفاجئ وغير المنطقي، تقرّر في اجتماع عام إغلاق مايكروفون الجامع بطبلة يكون مفتاحها عند عمدة القرية فقط، وأن على أي شخص يرغب في إذاعة شيء تهيئة الناس أولا، وذكر سياق الخبر كاملا دون نقصان، وأن يكون خبرا منطقيا ومفهوما، وقد أعطاهم العمدة مثالا لخبر طيران طبلول، فيجب أن يعلن المتحدث أولا اسمه ويعرف نفسه ثم يخبر الناس بأن طبلول الآن طائر في السماء، وأن يستأذنهم الهتاف فيه وأمره بأن ينزل، لا بالطريقة المرعبة التي فعلها شيخ الجامع، اعترض الشيخ قائلا إن خبر الطيران كله غير منطقي وليس هناك معنى من توضيح سياقه أصلا، فسياقه غير منطقي كذلك.

كيف يطير طبلول! لا أحد يعرف، لكن المؤكد أنه لا يطير بإرادته أبدا، مرة حكى الرعاة أنه كان داخل حفرة البابور حينما ارتفع فجأة من الداخل وتصاعد نحو السماء ثم سقط في الترعة، ومرة قال صديقه إنه طار بينما هو نائم وكان فعليا يتقلب في السماء. بينما تحكي أخته عن روتينه شبه المنتظم في الطيران البيتي، يطير في الصباحات المبكرة حين يخرج للمسواك، بحيث صار يلبس لبسا جيدا ويتأنق قبل أن يأخذ فرشته ويتسوك، وذلك تحسبا، فعلى الأقل

لن يطير بملابس داخلية كما حدث من قبل، أما أمه فتقول إنها تجده في الغرفة رابطا نفسه بحبل على الكرسي، وأحيانا يطير بكرسيه ذاته، أما في قسم الشرطة فقد سجنوه لخمسة أيام دون أن يطير أبدا ولا للحظة، ثم في اليوم الخامس كشف لهم السر فأطلقوا سراحه. وحين علمت الحكومة بالسر وتأكدت منه إثر تكاثر أعداد المحلّقين في الأجواء. قامت فورا بإعلان إغلاق الطرق وإيقاف المواصلات؛ المتوقفة مسبقا بسبب أزمة الوقود، فعلت ذلك حتى تقبض على المحلقين وتراجع هوياتهم وطرق طيرانهم، وبدل ذلك أعلنت أن على كل شخص أن يحاول كتابة قصيدة.

شارع آخر

لا أعرف اسمه، كان عسكريا في زمن ما، لكنه حينما رأى كيف تدخل الطلقة إلى بطن زميله، وضع البندقية وفتح طبلية في شارع القصر. لم يكن يكف عن الثرثرة والتبرم من الأيام ومن عمه، ومن زوجته السابقة، سأله أحدهم: ''لماذا طلقتها؟»، فقال: ''كلاما كتير ياخ».. سأله: ''كيف كلاما كتير؟ '' فالتفت له وقال: ''انت زاتك كلامك كتير.. قوم من هنا خلينا نشوف أكل عيشنا!»ّ. سيجيب عن هذا السؤال في حالات أخرى وأيام أخرى، مثلما جاوبه كثيرا فيما مضى لآخرين، وربما للأشخاص نفسهم، الذين بدورهم سيطرحون نفس الأسئلة. حين يلمح (دفار المحلية) يعرف كيف يلمّ بضاعته سريعا ويخفيها ثم يتفرغ لمساعدة ستات الشاي في لمّ بضاعتهن، بعدها ينضم لغسالي العربات ويبدأون في شتم عمال المحلية بألفاظ لا أستطيع ذكرها، مرة أتى الدفار مبكرا، ليجدوه وحده، فأمسكوه وأدخلوه إلى الدفار، حلف لهم بآلهته وشيوخه أنه لم يشتمهم مع الشاتمين من غسالي العربات، لم يصدقوه فقال

لهم إنه ''جياشي'' سابق، ولما لم يصدقوه أيضا تلا لهم نمرته العسكرية، سألوه عن بطاقته فقال: ''أنا مرقت من الجيش شارد، لو رجعت ليهم قلت داير بطاقة بقبضوني»، فسأله حضرة الصول: ''لماذا شردت؟» فهمس لهم: ''الموت''، اندهشوا واستغربوا وعايروه على جبنه فقال لهم: ''والله أنا الموت ما بنفع معاي، انتو لو بنفع معاكم مالي ومالكم»، حين أنزلوه من الدفار دون ضربه، استقبلته ستات الشاي بالزغاريد، كذلك غسالو العربات، بائعو الطبليات، وبائعو التسالي، وشحاذو الشارع، باحتفال صغير مرتجل، سألوه كيف نجا منهم، فقال: ''كما نجوت من الأيام ومن الحرب ومن زوجتي»، سألوه كيف نجا من زوجته، فقال: ''طلباتا كانت كتيرة، وطوالي كانت بتعايرني انو ما عندي قروش، لما جيت أضربا ضربتني هي بالحلة لما عوقتني، (يكفكف كم جلابيته ليريهم أثر الضربة).. قمت دخلت الجيش، بعد انتهينا من التدريب شحنونا بطيارات لنيالا، الرحلة كانت سمحة لكن الحرب ما كانت سمحة، قبل أقول بسم الله لقيت الجمبي وقع بطلقة في بطنو، خليت الجيش ورجعت لمرتي طلقتها تلاتة، وجيت الخرطوم فتحت الطبلية دي».

حدث كهذا وبضع أحداث أخرى عززت من سلطته كرئيس خفي للشارع، فمثلا فض مشاجرة كبيرة قامت

بين فريقين من غسالي العربات، كما أرشد الشرطة إلى نشالي الشارع، قيل إنها كانت صفقة مع نشالين آخرين، فأعطته الشرطة لقاء جهوده مكافأة مالية، نشلت منه في آخر اليوم! وأيضا كرمته شرطة المرور لمساهمته في تمرير حركة السير عقب حادث ضخم، وبعد يومين سحبوا التكريم بعد معرفتهم أن سبب الحادث طبليته.

أما الحدث الأخطر فكان بعد علم الأجهزة الأمنية أنه هو من حرض غسال العربات المشهور الذي خلع ملابسه ووقف عريانا في منتصف الزلط قائلا: ''أنا محتج». حلف لهم بآلهته وشيوخه أنه لم يحرضه أبدا، لم يصدقوه فقال لهم: ''خلوني أشرح ليكم، غسال العربات دا ما عندو قاش ورابط بنطلونو بحبل، ناس دفار المحلية جو وشالو جردلو وصابونو لليوم الرابع على التوالي، دافرهم ودافروهو فخلاهم ومشى وقف في الزلط محتج، يعمل شنو يعني، يركز مع بنطلونو ولا مع زعلو».

حين رجع للشارع استقبل باحتفال صغير مرتجل، وسألوه كيف نجوت من هؤلاء الأمنجية، فقال لهم: ''مثلما نجوت من دفار المحلية ومن الأيام ومن زوجتي».

المدهش هو وقوف السياح الصينيين معه لخمس دقائق،

أكسبه ذلك شهرة كبيرة في الشارع واحتراما، خصوصا من ضابط الدورية الذي سأله: ''هل تجيد اللغة الصينية» أما السياح الأمريكان فرفض بيع السجائر لهم، وقيل إنه ''سبّهم''. ولم يعرف المترجم ماذا يقول، كما لم يعرف أحد سبب المشكلة أيضا، السائح المصري كان الأجرأ، إذ سأله: ''هل تحب زوجتك؟» فالتفت له مندهشا وقال: ''دي شنو الأسئلة الغريبة دي!! هوي احترم نفسك ''فقال المصري: ''أنا بقصد هل حصل أحببتها يعني ''فقال بعد تفكير: ''أي حصل» فقال المصري»متى؟» فقال: '' يوم العرس، بين العصر والمغرب كدا، بالضبط اللحظة الكشفت فيها وشها وعاينت لابتسامتا» فقال المصري: ''وبعدين'' ..فقال: ''وبعدين اتكلمت وما سكتت لحد ما طلقتها». بعد خمس دقائق اشتبك مع المصري باليدين إلى أن حجزهما غسالو العربات ..ولم يعرف أحد سبب المشكلة أيضا، عدا ذلك فهو شخص يحب السياح جدا، ولا يبيع لهم السجائر بضعف ثمنها مثلما يفعل البقية، ومثلما يفعل هو ذاته مع بعض السودانيين. ضابط الدورية رغم أنه يحبه لكنه هو الذي نقل له إنذارا أنه لو اختلق مشكلة أخرى مع سائح فإنه سيطرد من هذا الشارع!. منذ ذلك اليوم بدأ البحث عن شوارع أخرى مناسبة له، مرة

قال للضابط أثناء ونسة إنه كلما رأى سائحا مقبلا يفكر في الشوارع الأخرى، ضحك الضابط كثيرا وتأسف له، لكنه لم ينقذه حين أخذ دفار المحلية طبليته، بعد يومين عاد بطبليته ذاتها، بينما لم تعد لا جرادل غسالي العربات ولا عدة ستات الشاي ولا طبليات بقية البائعين، سألوه كيف أعادها فلم يخبرهم، فانتشرت إشاعة أنه سرقها من مخزن المحلية.. وانتشرت إشاعة أخرى أنها ليست طبليته ذاتها بل أخرى تشبهها، لكنه في حالة أخرى ويوم آخر سيجاوب على هذا السؤال، وربما جاوب عليه لكنهم يحبون أن يكرروا الأسئلة. لا أحد يعرف من أي منطقة هو بالضبط، دائما يتحدث عن أنها بين مدنيتين، وأنها جميلة جدا لو كانت بدون سكان، فسكانها لا يعرفون من هو رئيس الجمهورية ولا يعرفون أننا دخلنا القرن الواحد والعشرين! فيقول له أحد الغسالين: ''أنا أيضا لا أعرف من هو رئيس الجمهورية، ولا أعرف إن كنا دخلنا القرن الواحد والعشرين». فيرد له: ''لالا إنت حالتك براها، كدي أديني الخمسين جنيه الدايرا منك ''.. حين يضحكون لا يضحك، الحقيقة لم أره يضحك سوى مرة واحدة كانت مع السياح الصينيين، برغم أنه لم يفهمهم ولم يفهموه، فقط قرر أن يجرب رطانة قبيلته معهم، ولا أحد من قاطني الشارع استطاع التفرقة بين الرطانتين.. أين يسكن؟ لا أدري، لكنه دائما يتحدث عن

عمه الذي يقيم معه في نفس الغرفة، ويسأل الله أن يقتله، فيسألونه ''لماذا؟'' ''فيقول: ''جا الخرطوم عيان، ولما حالتو تحسنت رفض يرجع البلد عشان قال الخرطوم سمحة شديد، دا تالت زول أجيبو من البلد ويابى رجع عشان الخرطوم سمحة شديد، ياخ سماحة الخرطوم زي الشارع دا واقعة معاي بالخسارة '' يقول له أحدهم: ''تلقاك إنت زاتك ما داير ترجع البلد عشان سماحة الخرطوم». يفكر.. يفكر ولا يرد، كأنه أول مرة يفكر في الأمر، يستغل أحد الغسالين الفرصة ويأخذ سيجارة ويجري، ينتبه له ويجري خلفه بالسبّ والشتائم، عسكري الدورية رغم أنه يحبه، لكنه ينقل له إنذارا بأنه لو سب بصوت عال هكذا مرة أخرى فإنه سيطرد من هذا الشارع.. في اليوم التالي كل الشارع لعن دفار المحلية إلا هو.

الآن لم يعد موجودا في هذا الشارع، الأغلبية تقول إنه دخل في مظاهرة مرت بالشارع ثم لم يظهر مجددا، آخرون يقولون إنه رجع إلى منطقته، قلة يقولون إنه سافر إلى السعودية، لكن البعض يجزم أنهم رأوه في شارع آخر ويتحدث عن نجاته من هذا الشارع.

القلق

لو فجأة تخلّت البنات عن الذهاب لمواعيدهن مع الأولاد، لو استشرى هذا القرار للحظة كالعدوى فغيّرت كل بنت طريقها أو رجعت من حيث أتت، ومرّ الوقت بأحبائهنّ المنتشرين في شارع النيل وجنبات العربي وحدائق الأطفال وحبيبي مفلس وبرندات السوق والمطاعم والساحات، لو مرّت نصف ساعة على ذلك القرار الفجائي، وبدأ كل حبيب منهم بالتوقّع والقلق، واستشرت حكة جماعية غامضة في كل هذه الأماكن، كل ينظر للآخر في استغراب، يتثاءبون بطرق مختلفة، يتصلون للحبيبة ذات الرقم المغلق ثم يلعنون تباعا، بعضهم يتجهّم، يقابلون الشحّاذين بوجه غاضب، بعضهم يؤلف قصائد رديئة عن الانتظار، أو يراجع قصائد قديمة، ويتسآل إن كانت حبيبته قد ماتت. بعضهم يطلب شايا آخر، جبنة أخرى، يبحثون فجأة عن سجائر، عن رصيد، يتفاجأ أصحاب الأكشاك بهذا الإقبال الجماعي لشباب بوجوه مرتبكة، بينما آخرون يركنون للصمت الأكثر غموضا، يبلّغ رجل المباحث عنهم كتجار دولار محتملين

بالتفاتاتهم القلقة وجيوبهم المنتفخة، في المطاعم الراقية يتهامس الجرسون مع زملاءه عن الشاب الجالس وحده منذ نصف ساعة، ثم آخر وآخر، هناك جرسون لم تأت حبيبته أيضا لكنه يتهامس معهم، يأتي بائع متجول ويتحدث عن شارع غريب فيه الكثير من الوجوه الغاضبة البائسة ويتسآل إن كانت هناك مظاهرة اليوم، تكثر البلاغات عن حوادث مرورية خفيفة، لكن تعقبها شجارات عنيفة بين السائقين، يقل الأوكسجين في السوق العربي، تتحول أغاني المطاعم فجأة من الحب للخيانات بأنواعها، يجد أحدهم ركنا قصيا فيبكي، حين يسألونه يفكر في إجابة منطقية ولا يجدها، للسائل حبيبة لم تأت أيضا وقد أتى للزقاق لنفس السبب، أحدهم يبكي في حمام عمومي، آخر داخل سيارته المظلّلة، حين يباغته رجل المرور يعطيه منديلا ويخلي سبيله، أحدهم يعتلي سطوح عمارة، وآخر يستغل شماعة الحافلة المزدحمة للبكاء، بعد ثلاث ساعات كانت الكثير من الدببة ملقاة على الشوارع، الكثير من المناديل المستعملة استعمالا خفيفا وثقيلا، الأوراق الممزّقة، يرفع طفل ورنيش ورقة مقذوفة للتو ويحاول قراءة حروفها المكرفسة، الإكسسورات، الملائكة الذين يسجلون السيئات بأنواعها المختلفة، أوراق الحلوى الممضوغة بحسرة، اللبان المقذوف في أماكن حاقدة من

أجل أن يلصق في حذاء ما، كل لبانة حبيب تصادف حذاء حبيب آخر، يتحدث شرطي المباحث عن كثير من الشباب الذين وقفوا فجأة لينظروا تحت أقدامهم لكن الضابط كان منشغلا بحبيبته التي لم تأت. يسيّر من أجلها دورية تفتيش، يستقبل ”كول سنتر» شركات الاتصالات مكالمات أكثر من اللازم وشتائم أكثر من اللازم، ترتفع أسعار السجائر في العاصمة خلال ساعتين فقط، بينما يتعاطف تجار التمباك مع ما يجري، تفرغ أزيار السوف العربي من الماء، يبدأ الناس بالشرب من المواسير مباشرة، تفرغ المواسير.. يبدأ الناس بالشرب من النهر مباشرة ثم فجأة ..يرفعون رؤوسهم عن النهر.. مخلوعين، ينظرون باتجاه واحد، يلفتون إليه بعضهم البعض، تستدير الوجوه وتندهش تباعا، يرتاح النهر من أفواههم لخمس دقائق، يعم الصمت، إلا من شهقات الدهشة المتوالية، وبعض الأنفاس والآهات المتحسرة، ففي الجهة التي ينظرون لها كانت هناك بنت، صحت متأخرة كالعادة ففاتها شاي الصباح وقرار البنات الفجائي بالتخلي عن مواعيدهن، والآن تمشي في الشارع للقاء حبيبها، نعم هو أنت.

محطة أخرى

في الركن الخلفي للبص المتجه نحو الجرافة كانت تحاول حل أمور مستعصية أمام الحب. في المقعد الأمامي حبيبان يضحكان، ويصمتان في بداية كل انطلاقة سريعة للبص، أو أثناء مروره بمنعطف خطير، متخيلان عواقب خطيرة، وحين لاحظ السائق خوفهما الصغير هذا صار أكثر تهوّرا، لتتخلل فمه الابتسامات بين الحين والآخر، في مقاعد البص الوسطية تدور ونسة عبثية عن أشياء تجود بها النوافذ، الزحمة وصف العيش وعمارتان قبيحتان وأسعار الدولار ووو، في ركن المقعد الخلفي شاب يدندن مع أغنية الراديو التي يعاتب فيها حبيب حبيبته، لكن كل ذلك كان يعتمد على بنت عشرينية، جالسة في الركن الآخر، تتحدث عبر الهاتف بلهجة حادة مع حبيبها قبل أن يرتفع صوتها شيئا فشيئا، بدا أمرا مهما في البداية، ثم خطيرا، ثم مفزعا وحاسما، كان يريد منها التخلي عن وظيفتها، وكانت تريد منه الرجوع من السعودية ليتزوجها. شيئا فشيئا أصغى الركاب كلهم لكلماتها المنفعلة الحارة، وهي تعاتبه على آرائه وتحكماته

الرجعية دون تقديم أيّ وعود جادة لها، ويعاتبها هو على عدم احترامه، ليستمر بينهما نقاش عقيم تخللته عبرات خانقة وأصوات متدرجة نحو رجفة مربكة، بحيث فقدت الفتاة إحساسها بالمكان وبما حولها، لينطلق صوتها المعاتب عاليا ومفجوعا، أغلق السائق الأغنية نهائيا، وتوقف عن انطلاقاته السريعة ومجازفاته، بينما انتقل الحبيبان في المقعد الأول إلى خوف جديد، توقفت ونسات المقاعد الوسطية تماما بينما أرخى الراكب في المقعد الأخير أذنيه لشيء غير الأغنية، كان الجميع يراقبون هذا الحب الذي يموت بينهم الآن. الآن داخل هذه المكالمة، هنا في هذا الركن التافه الصغير، سيتحدد مصير، حتى أن الكمساري خجل أن يطلب منها التعريفة، والسائق خفف من سرعته لينتبه أكثر، كل ذلك والبنت مشغولة تماما عن هذا الانتباه الجماعي لها، مستمرة في مبارزة كلامية حامية مع حبيب في أمور مستعصية جدا وبلا حلول بائنة، وبجمل مبعثرة ومرتبكة ومليئة بالأخطاء الترتيبية، وباستفهامات خشنة ومستفزة أحيانا، وطغى شعور داخل البص بهذا الاختناق الذين يعانيه الحب في مكالمتهما، وظهرت ردات فعل في وجوههم مع كل انفعال تبديه البنت، يومئ أحدهم، يبرم آخر شفتيه، ويأخذ ثالث نفسا طويلا، ثم في لحظة ما

داخل أحاديثهما الغاضبة حدث ذلك الانتقال المأساوي، تلك اللحظة الحزينة، ومضة الضوء التي تكشف لك الطريق، لقد عرفا بطريقة ما أن هذه هي النهاية، وتأكدت البنت أنها مثلما ركبت البص وهي حبيبة أحدهم، ستنزل وحدها تماما، ظهر ذلك جليا في عينيها، في فتحها الجزئي للنافذة، كانت تسأله بصوتها المبتل: ''وماذا الآن؟» ثم تميل نحو دفقات الهواء لكي لا تسمع إجابته، ثم تسأله: ''ماذا قلت؟» تخفض رأسها لتلمس أرضية البص بأصبعها دون سبب، ثم تقول: ''ماذا يعني ذلك؟» وتأخذ نفسا طويلا، يرخي الركاب آذانهم، يتوقعون إجابات، يقلقون بحركة متجانسة وتلفت متكاثر نحو الفتاة، يرتبك البص ويترنح في الطريق للحظة إثر تلقّت السواق. وكان على البنت أن تقطع طريقا قاسيا جدا في مكالمة بلا أمل، طرح أسئلة تعرف إجاباتها، إجراءات عبثية، سؤال أخير عن هل هذه هي النهاية فعلا، إجابة ركيكة من الطرف الآخر، صمت هنا وهناك، تفكير فيما يعنيه هذا الصمت، أمل! سؤال من الطرف الآخر، إجابة ركيكة من البنت، ثم اختبار أخير بأسئلة غبية لكنها ضرورية، ثم إجراءات ثقيلة جدا، حأمسح رقمك، يبدو انو غلطنا من البداية، حصل خير يا زول، أنفاس ساخنة، استطرادات عقيمة، صمت صمت،

ثم تبعد البنت الهاتف من أذنها وتغلق المكالمة، تمسح رقمه، تخرج السماعات وتضعها في أذنيها، تفتح أغنية بصوت عال جدا نسمعه بوضوح، ثم تغلق النافذة، بعد خمس دقائق تفتحها، خمس دقائق أخرى تمر لتغلقها، ثم تفتحها مجددا، ثم تغلقها، ثم تنزل في محطة لا أظنها محطتها.

عينان

في عينيها رأى كل شيء، كل شيء حرفيا! جوربه الضائع منذ أسبوع تحت الدولاب، مفتاح البيت، خمسة وعشرون جنيها نسيها في جيب البنطال الخلفي، علبة سجائره التي يتركها في أماكن غريبة. أحست هي بولعه الزائد بعينيها دون أن تفهم الموضوع بالضبط، تقول لصديقاتها إنه يناديني لأقابله ثم ينظر لعيني طيلة نصف ساعة دون كلام، ينظر وينظر وينظر، بلا ابتسامات أو تفاعلات، بل متأملا، بالأحرى كأنه يبحث عن شيء ما، يتأوّهن ويقلن أن ذلك هو الحب بعينه، حكت لهن عن اقترابه مرة من عينيها بعدسة مكبرة، مرة جاءها في مكان عملها وطلب أن ينظر لعينيها لعشر دقائق فقط ويذهب، مرة اتصل بها وطلب منها أن تفتح بثا مباشرا لعينيها، يتأوّهن مجددا ويحلمن بحبيب مثله، يتصل بها ويطلب منها: "صورة لعينيك»، ترسلها له فيقلبها ويتأملها كصورة أشعة، ثم يقول للشخص الجالس أمامه إن أمواله الضائعة في المكان الفلاني، ثم يخبر الشخص التالي بمكان كلبه، والثالث بمكان ابنته، والرابع

ضابط شرطة يخبره بمكان العصابة، يستلم من كل واحد ألف جنيه ويودعهن الخزنة، كان قد فتح هذا المكتب منذ شهرين، منذ أن رأى في عينيها قدّ الإبرة التي يحملها في يده، فتأكد من هذا السر الخطير، في البداية رأى فيهما ''رأس البيت»، والمنطقة المظلمة وراء الدولاب، و الحلوى الذي دساها أخوه داخل الثلاجة وراء المواعين، هذه الأشياء التي لا نراها في العادة، ثم حين ضحكت مرة بشدة أمامه، رأى أكثر، ففتح مكتبا لإيجاد الأشياء الضائعة، بعد شهرين قبضته الشرطة وسألته عن قدراته الرهيبة هذه فلم يفهموا أجوبته، فتح الضابط ملفه فوجد أن هذه سادس مرة يقبض فيها عليه، الأولى من داخل مختبر طبي لمزاولة المهنة بدون شهادات، وقد قال في استجوابه إنه يرى البكتيريا داخل عينيها، في المرة الثانية كدجال ومشعوذ، كان يرى الودع هنالك أيضا، المرة الثالثة كصحفي تحت التمرين بعد كشفه لمعلومات حساسة جدا تتعلق بإفطار الرئيس شخصيا، الرابعة حين توقّع أرقام خمسين كرت رصيد أريبا وباعهن جميعا، والخامسة حين سرب امتحان الجغرافيا وباعه بخمسة آلاف لطلاب الحلة، وفي كل مرة أفلت من السجن لسبب غير معروف، فقد كان يرى في عينيها أسرار القاضي الشخصية جدا.

ولا أحد يعرف مكانه الآن، اختفى فجأة بقدراته كلها، وكثرت أشياء المدينة الضائعة وتراكمت بدونه، افتقده اللصوص والشرطة ومصابو الزهايمر وموظفو السجل المدني، ،عمال المناجم وحفارو الذهب والشعراء، الذين كان يجد لهم الإلهام وأحيانا الكلمات. افتقده كذلك المنجمون والمبرمجون والصيادون، قيل إنه مات، وقيل إنه سافر لإيجاد شيء ضائع مهم جدا، لكن معلومة غريبة ذكرها شهود عيان، وهي أن آخر مرة رأوه فيها كان جالسا مع حبيبته يتأمل في عينيها فقالت له ''أحبك''، لأول مرة، ولا أحد يعرف ما رآه في تلك اللحظة !

مشهد

الطريقة التي يتحدث بها غسالو العربات عن المظاهرة، عن السياح الصينيين، عن ضرورة عدم قطع صفق الأشجار، يستشهد أحدهم بآية ما، يبدأها ثم يتظاهر بأنه يتذكر باقي الآية. بالأمس كانوا يضحكون ملء بطونهم على مشهد انفصال ولد وبنت، انفجروا بالضحك في اللحظة التي تحدثوا فيها عن بكاء الولد، مثلوا المشهد سريعا، خلع أحدهم خاتما ووضعه أمام الآخر.. بكى الأخر! ضحك البقية لثلاث دقائق متواصلة، دخلت عربة جديدة إلى الساحة لكن الغسالين كانوا مشغولين جدا .. اليوم كانوا يتحدثون عن شيء أغرب، عن ولد وبنت انفصلا هنا أيضا، نزعت البنت الخاتم ووضعته أمام الولد، بكى الولد، لكن سرعان ما أعادت البنت لبس الخاتم وضحك الولد، بعد قليل تشاجرا بحدة وتبادلا شتائما، ثم عادا للضحك مجددا.. تحدث غسالو العربات عنهما باندهاش قائلين إنهما مجرد مجانين، لكني حين راجعت الكلام في رأسي فهمت أن الغسالين كانوا يتحدثون عن ولد وبنت، بينما الولد والبنت كانوا أيضا يتحدثون عن ولد وبنت آخرين، إذ يعيدون تمثيل مشاهد انفصالهما.

الأستاذ والتلميذ

جن جنون أستاذ اللغة العربية أثناء تصحيحه كراس أحد التلاميذ، فاستدعاه فورا وصرخ فيه قائلا: ''دا شنو الكلام الفارغ الكاتبو دا يا تلميذ؟»

– التلميذ: ''ياتو؟''!

– الأستاذ: ''طلبت منك مثالا لجملة فعلية فتكتب لي (فجر التلميذ المدرسة)!»

– التلميذ: ''دي ما جملة فعلية يعني؟»

– الأستاذ: ''دي قلة أدب ''

– التلميذ: ''لكنها جملة فعلية ولا ما جملة فعلية؟»

– الأستاذ: ''داير تجنني يا غبي إنتا!.. آي جملة فعلية ..لكن وقاحة.. كيف يعني تلميذ يفجر مدرسة؟!»

– التلميذ: ''ما فجرا يا أستاذ، دا مجرد مثال، مفترض نفرق ما بين صحة المثال لغويا وما بين معنى المثال في ذاته،

والمثال هنا صحيح لغويا»

– الأستاذ: ”كمان بتفترض علي.. يا شافع هوي ما تتفلسف وتكتر الكلام.. ما عندي ليك وقت أنا.. المهم تاني ما تكرر الكلام الفارغ دا».

بعد عدة أيام استشاط الأستاذ غضبا أثناء تصحيحه كراس نفس التلميذ.. فاستدعاه على الفور وقال له: ”لأني سكتت ليك المرة الفاتت وما عاقبتك.. كررتها المرة دي بطريقة أشنع؟؟»

– التلميذ: ”كررت شنو يا أستاذ؟»

فرمى له الأستاذ كراسه وقال:

”أطلب منك مثالا لجملة فعلية فتكتب لي (ضرب التلميذ الأستاذ).. دي قلة أدب جديدة ولا شنو ؟!!»

– التلميذ: ”دي ما جملة فعلية يعني؟»

– الأستاذ: ”إنت غبي يا ولد؟! داير تجنني معاك؟!.. دي إسمها وزارة التربية والتعليم، بمعنى أن التربية قبل التعليم، وعيب تكتب إنو تلميذ ضرب أستاذو».

– التلميذ: ”ما ضربو لكن يا أستاذ.. دا مجرد مثال ”

فتناول الأستاذ السوط وقال له: ''افتح يديك»

-التلميذ: ''حتعاقبني رغم إنو إجابتي صحيحة!».

- الأستاذ: ''ما حاعاقبك عشان صحة الإجابة .. إنما عشان قلة أدبك دي»

- التلميذ: ''ما بيحصل يعني إنو تلميذ يضرب أستاذو ولو حتى بطريق الخطأ؟!»

فاستشاط الأستاذ غضبا وأمر التلميذ أمرا غليظا بأن يفتح يديه، ثم أعطاه خمس جلدات وأمره بالانصراف.

توجع التلميذ وغضب كثيرا. ثم في المرة القادمة كتب مثالا أدهش الأستاذ وأغضبه فاستدعى التلميذ وقال له:

''دا شنو الكتبتو المرة دي كمان! (كتب التلميذ جملة ثم مسحها قبل أن يجمع الكراس للأستاذ)).. قاصد شنو بالكلام دا يا وش المصايب؟»

- التلميذ: ''دا مثال لجملة فعلية يا أستاذ»

- الأستاذ: ''عارفا مثال لجملة فعلية يا زفت، لكن شنو الجملة القلت كتبتها ومسحتها دي قبل ما تجمع كراسك؟»

- التلميذ: ''مافي جملة مسحتها يا أستاذ.. دا مجرد مثال

ساي»

– الأستاذ: ''إنت ما بتتعظ من الدق.. صح؟»

– التلميذ: ''في المرة الفاتت عاقبتني على الكلام الكتبتو، المرة دي حتعاقبني على الكلام الما كتبتو؟»

الأستاذ: ''لا لا لا.. أنت ما بنفع معك السوط.. لابد أسوقك للمدير يتصرف معاك ..

ثم جره من أذنه حتى مكتب المدير.. قرأ المدير المثال ((كتب التلميذ جملة ثم مسحها قبل أن يجمع الكراس للأستاذ).. ثم قال للأستاذ مستغربا:

''المشكلة شنو في المثال دا؟»

–الأستاذ: ''حأوريك المشكلة شنو يا حضرة المدير، التلميذ دا قليل أدب؛ كل مرة أطلب منو مثال يكتب لي مثال وقح.. في المرة الفاتت كتب لي (ضرب التلميذ الأستاذ)) وفي المرة القبلها كتب (فجر التلميذ المدرسة)! ولما عاقبتو في المرة الفاتت كتب لي المرة دي المثال القدامك دا؛ (كتب التلميذ جملة ثم مسحها قبل أن يجمع الكراس للأستاذ).. فهمت قلة أدبو دي؟»

التفت المدير للتلميذ وقال: ''الكلام دا صحيح؟»

– التلميذ: ”يا حضرة المدير.. إنت سألت المشكلة شنو في المثال دا.. المثال دا ما فيهو مشكلة؛ وإنما مشكلة المثال دا هي المثال القبليو، واللي أصلا الأستاذ عاقبني عليهو المرة الفاتت، فهل حتحاسبني مرة تانية على الأمثلة السابقة اللي أصلا سبق وحاسبوني عليها؟!»

– المدير: ”لا.. ولكن الواضح لينا أنك قاصد من خلال الجملة دي الأمثلة السابقة..»

– التلميذ: ”وهل حتحاسبوني على نواياي ومقاصدي الظانينها إنتو؟»

اندهش المدير ثم قال:

”طيب طيب.. كدي نبعد النوايا.. وخلينا نعاين للجملة من دون النظر للماضي.. مشكلة الجملة إنها غامضة كدا وبتخلي الزول يظن حاجات»

– التلميذ: ”وهل حتحاسبني عشان الجملة غامضة؟»

استعر غضب الأستاذ بينما ضحك المدير ثم قال:

”طيب يا ولدي.. خلينا نقول إنك ما غلطان.. لكن أستاذك دا كمان ما بحب الغموض!.. فما تكرر ليو نوع الجمل دي تاني.. سمح؟»

أومأ التلميذ إيجابا قبل أن ينصرف.. ثم في المرة التالية كتب التلميذ جملة واضحة لكن الأستاذ فهم منها ألف معنى فجن جنونه. استدعى التلميذ ثم جره من أذنه لمكتب المدير وقال:

''شوف التلميذ الكلب دا كتب شنو؟»

قرأ المدير المثال: (طارد الفأر القط). ثم التفت للأستاذ وقال:

''المشكلة وين طيب؟»

-الأستاذ: ''أول حاجة ما سمعنا بي فار بطارد ليو قط.. و بعدين عاارفو قاصدني أنا بالقط دا.. عايز يتحداني بإضنينو الطوال ديل.. والله أنا أقطعن ليهو»

ابتسم المدير ثم التفت للتلميذ وقال: ''أها قولك شنو؟»

- التلميذ: ''المثال دا صحيح لغويا ولا لا؟»

- المدير: ''صحيح''

- التلميذ: ''طيب ما مشكلتي إنو الأستاذ قبل كدا ما شاف فار بطارد قط ''

ضحك المدير ثم التفت للأستاذ وقال:

”كفاك أوهام يا أستاذ.. التلميذ دا ما قاصدك إنت بالقط.. بعدين خلينا نعتبر إنو مطاردة الفأر للقط من باب تكسير المسلمات.. أو من باب اللغة الشعرية، وإنت الأدرى.. مش الشعر فيو جمل غريبة زي دي برضو؟»

خرجوا من المكتب ليواصل التلميذ في المرات التالية جمله الغامضة:

(اصطادت الغزالة أسدا)

(تحرر العصفور من قفصه)

(نقر العصفور عين الشخص الذي حبسه)

ازداد استياء الأستاذ مرة بعد مرة وهو يقرأ هذه الأمثلة، فقد كان يرى أنه المقصود بالأسد والقفص والشخص الذي حبس العصفور، لكنه لم يستطع أن يحرك ساكنا، أما في المرة التالية فلم يسكت، بل ذهب إلى المدير فورا وقرأ له مثال التلميذ الجديد .

(ثار الشعب على النظام)

استغرب المدير واقترب من الأستاذ هامسا:

– ”إنت تبع الجماعة ولا شنو؟»

– الأستاذ مستغربا: ''لالا طبعا ''

– المدير: ''طيب مالك متضايق من المثال دا؟»

– الأستاذ: ''يا حضرة المدير النظام هنا ما قاصد بيو الحكومة، قاصد بيو نظام المدرسة.. أنا بعرف الولد دا وقلة أدبو كوييس»

– المدير: ''وعرفت كيف إنو قاصد نظام المدرسة؟»

الأستاذ: ''أمثلتو الفاتت كلها بتقول كدا»

– المدير: ''دي المشكلة الفيك يا أستاذ.. إنت لسة قاعد تحاسب الولد دا على أمثلتو الفاتت.. كل ما يعمل حاجة جديدة إنت بتحاسبو على الماضي.. اسمع يا أستاذ.. التلميذ دا بيوعى يوم بعد يوم وجملة بعد جملة، وأنت عايز تعاقبو عشان بتظن إنك المقصود بالشي البكتبو؟!.. إنت حابس نفسك فى الماضي بينما البتقول عليو ولد دا ارتقى بأمثلتو لمعاني أعظم، فأرجوك إرتقي معاهو ياخي»

خرج الأستاذ من مكتب المدير محرجا وغاضبا، لم يأكل شيئا في ذلك اليوم، ولم يستطع النوم حتى ولا الضحك ولا الونسة، حتى اكتمل غضبه تماما في المرة التالية لتصحيحه كراس التلميذ، إذ انقبض قلبه وهو يقرأ المثال الجديد،

ارتجف من الضيق وتعالت أنفاسه الحادة، ثم قرأ المثال مرة أخرى:

(أسقط الشعب النظام)

أخذ الكراس حينها ثم قام و خرج من المكتب، ثم من المدرسة، ومشى في الطريق إلى قسم الشرطة .

محاولة إعادة تشكيل حرفي لمدينة داخل لحظة ثورية

١

توقف المارة عن المشي، التفتوا لجهة واحدة بأعين حازمة كأنما أصابهم المس، حتى نقاشات الباعة مع الزبائن توقفت، أبواق العربات، سماعات المطاعم الصاخبة، صيحات التجار، شرطي المرور سرح للحظة في شيء ما، ست الشاي وقفت وبدأت بالتلفت، بينما زبائنها على البنابر ولوا وجوههم قبلة الساحة الرئيسية في السوق، كلهم في نفس اللحظة، كان ذلك في تمام الساعة ١٢ و٥٩ دقيقة.. بعض أصحاب المحال بدأوا في الإغلاق، بعضهم أغلق ضلفة واحدة وأخرج كرسيا وجلس عليه يتفرج، في ماذا؟ ليس هناك شيء إلى الآن. عربة الشرطة كانت واقفة في آخر الشارع، عليها عساكر يتنفسون بسرعة، بجوارها عربة بدون لوحات عليه رجال ملثمون، وقفوا على أمشاطهن أيضا ينظرون، إلى ماذا؟ ليس هناك شيء. عمال الورنيش أعادوا الأحذية إلى زبائنهم كما هي، الشحاذ أخذ إناءه من على الطريق وهمس لزميله: ”تبقت

دقيقة واحدة»، الكلاب اختفت أسفل العربات، القطط عادت لمخابئها، الطيور عفت عن بقايا الطعام رغم جوعها وغادرت المكان، حشد من المصلين خرجوا من المسجد، كذلك الخارجون من نوادي المشاهدة قبل انتهاء الفيلم، ومن محلات الشيشة، قبل أن تنتهي أحجارهم، كل هؤلاء وقفوا ينظرون إلى بعضهم البعض، انسدت بضعة نوافذ في العمارات المجاورة بينما انفتحت أخرى لتطل منها وجوه مترقبة إلى الشارع، إلى ماذا تنظر؟ لم يحدث شيء بعد. الساعة الواحدة ظهرا. انطلقت زغرودة.

٢

(اللستك) ما هو؟ فجأة أصبح حدثاً غير اعتيادي في الشارع، يبتعد عنه المارة، تتحاشاه السيارات، يرمقه الشحاذ من بعيد بحذر ويتأكد من عدم اشتعاله ثم يغير وقوفه إلى الرصيف الآخر، ينظر له أصحاب الدكاكين بتوجس ويجهزون أقفال أبوابهم تحسبا، يقسم العجوز الجالس أمام بيته أن هذا اللستك شيطاني، ويبرر كلامه بأنه ظهر فجأة دون أن يضعه شخص بعينه، صدقه العجوز الجالس معه وقال ''أعوذ بالله» فلم يختف اللستك! فتاتان توقفتا بجانب اللستك وأخذن ''سيلفي'' بضعة شباب مروا به ضاحكين، أحدهم أدى تحية عسكرية له .رأته امرأة من بعيد فدخلت إلى الحي لتجعله موضوع ثرثرتها في كل البيوت التي زارتها. كل نساء الحي عرفن أن ثمة لستك لم يشتعل بعد في الشارع الرئيسي، كل امرأة أعطت ولدها كبريتا ووصته بالذهاب في عجلة إلى موضع اللستك لينال شرف إشعاله، كل أولاد الحي خرجوا بكباريت في جيوبهم. في مدخل الحي وقفت ستة تاتشرات، عليها ثمانون شرطيا، خمسون بندقية كلاشنكوف، عشرون بندقية بمبان. كانوا يقصدون هدفا محددا. لستك في طرف الشارع لم يشتعل بعد .

٣

أثناء حصة التاريخ للصف الثامن، بالضبط أثناء تحدث المعلمة عن معركة كرري وتضحيات الأنصار العجيبة، وهم يصطفون أمام المدافع البريطانية واهبين أرواحهم للوطن، كان التلميذ في المقعد الأخيرة يفكر في شيء آخر، اللستك الخامس. اللستك الإضافي المربوط في الصندوق الخلفي لعربة المدير (البرادو) التلميذ الذي بجواره فكر في باقة البنزين التي يخبئها المدير في مخزن المدرسة، التلميذ الثالث فكر في نكتة مضحكة ليحكيها للبواب، فالبواب عندما يضحك يغمض عينيه حتى تنتهي الضحكة، وهي مدة كافية لإخراج اللستك عبر الباب، المشكلة كانت في كيفية قطع الجنزير عن اللستك في عربة المدير، وهذه تكفل بها التلميذ الرابع في الكنبة، الذي جلب في حقيبته، عِوض الكتب، مقص كبيرة من ورشة والده. فجأة خبطت المعلمة بيدها على طاولتهم لينتبهوا مفزوعين.. صاحت فيهم بصوت عال:

”ناديتكم تلات مرات وانتو ولا كأنكم جوة الفصل.. سرحانين في شنو انتو؟؟»

تلفتوا إلى بعضهم دون أن يتكلموا، فأردفت المعلمة وهي تهز سوطا غليظا

”طيب الحصة كانت بتتكلم عن شنو؟»

واستمر التلاميذ الأربعة في سكوتهم، غضبت المعلمة ونهرتهم قائلة: ”افتحو يدينكم» أعطت كل واحد خمس جلدات شداد، ثم عنفتهم وأمرتهم بالانتباه وقالت:

”الحصة كانت عن معركة كرري الضحى فيها السودانيون بأرواحهم من أجل هذه البلاد، لكن انتو يا ناس الكنبة الأخيرة ما حتتعلمو كلو كلو»

بعد الحصة التف التلاميذ الأربعة حول بعضهم لمراجعة الخطة، أثناء ذلك قال أحدهم مشفقا:

” المدير دا زول كويس ياخ ليه نظلمو ونشيل لستكو ونحرقو؟»

فحدق فيه تلميذ آخر بعين صارمة وقال بصوت خافت حذر:

” لأنك إنت ما عارف لقينا شنو أمس في منبرشات، المدير دا طلع من الجماعة يا حبيبنا».

ارتفعت حواجبهم في تلك اللحظة وغضبت ملامحهم وأصروا أن يحرقوا لستكين من عربة المدير لكن التلميذ الآخر رفض قائلا:

”ما دايرين إنفعالات يا اخوانا، كفاية لستك واحد بس»

وبدأ تنفيذ الخطة.. انكسر الجنزير، تحرر اللستك من العربة، تحررت باقة البنزين من المخزن، حكيت النكتة للبواب فضحك وأغمض عينيه، خرج اللستك إلى الشارع واستقر في قلب الشارع، اشتعلت فيه النار، تجمع حوله التلاميذ، في البداية كانوا أربعة فقط.. ثم عشرة، عشرون، خمسون، مئة يهتفون جميعا: ”سلمية سلمية.. ضد الحرامية» وجيش من التاتشرات كان في الطريق إليهم.

سمعت معلمة التاريخ الضجة من مكتبها، فخرجت إلى الساحة، سألت أحد التلاميذ عما يحصل فقال:

” معركة كرري الزمان حضرتيها بعيونك؟»

فقالت مندهشة: ”لا طبعا».

فقال لها التلميذ:

”طيب أجري الحقي الإعادة برة ما تفوتك».

٤

سوق أمدرمان، وأثناء صلاة الظهر في الجامع الكبير، كان العسكري كلما سجد يدعو هامسا :"يارب الموكب ما يقوم "بينما كان دعاء الشاب بجواره: "يارب الموكب يقوم» ارتبك الملاك الموكل بتسجيل دعوتيهما، لم يكن يعرف ما هو هذا الموكب، ولكن كيف يسجل في دفتره دعوتين بهذا التعارض لمصليين متجاورين في صف واحد، تأفف وانتظرهما حتى السجود التالي فكررا نفس الدعوتين بنفس الإصرار والتضرع، لم يكونا حتى يرددان أذكار السجود، فبمجرد ما تحط جبهتهما على الأرض يبدآن فورا في التمتمة ليكرران الدعاء لأكبر عدد ممكن: " يارب الموكب ما يقوم.. يا رب الموكب يقوم» احتار الملك جدا من هذا الموقف المعقد، فحتى لو قرر تجاوز الموضوع وتسجيل الدعوات بشكلهما هذا فأي دعوة سيسجلها كأولوية في دفتره، طاف على دعوات المصلين الآخرين، كلها كانت عن الزرق والمال والعرس والصحة والعمر الطويل، إلا دعوة الإمام فكانت أن يجنب الدولة هذه الأيام الفتن ما ظهر منها وما بطن، ولا تبدو دعوة مجدية لأن الفتن تحوم في

البلد منذ ثلاثين سنة. المهم أن الدعوات طبيعية ومفهومة ولا تتعارض مع بعضها، وليس كما العسكري والشاب اللذان يتبارزان بدعوتيهما كما السيوف، ”يارب الموكب يقوم، يا رب الموكب ما يقوم». انتهت الصلاة ولم يسجل الملك دعوتيهما بعد، كان الشاب يحمل في جيبه كمامتين، أربعين جنيها، موبايل ريبيكا، وورقة مكتوب فيها ”تسقط بس» أما العسكري فكان ملثما بشال، يلبس زيه الرسمي، ويحمل في جيبه ريبيكا أيضا ومحفظة فيه ستين جنيها، حين خرجا من المسجد جلس الشاب عند ست شاي قبالة الساحة الرئيسية وطلب كوبا، بينما صعد العسكري إلى تاتشر الأمن المرتكز في مدخل الساحة، واستلم عصاه. حاول الملك الاستسفار من الملائكة المنتشرين في الساحة، فقال له أحدهم: لا نعرف شيئا، ولكن 90 في المئة من الناس المتواجدين هنا ينتظرون الساعة الواحدة لأمر جلل، ولأن الملك مضطر تقدم نحو الشيطان في طرف الساحة وسأله فقال الشيطان: الساعة الواحدة بالضبط تنطلق زغرودة، ثم فجأة يقول الكثير من الناس في سرهم ” بسم الله ” ويقومون، فأضطر حينها إلى مغادرة الساحة، نظر الملك إلى ساعته، تبقت خمس دقائق فقط على الساعة الواحدة ولم يقرر بعد أي دعوة سيسجلها في دفتره، هل يسجل دعوة قيام الموكب أو عدم قيامه، ولكن ما هو هذا

الموكب أصلا، قرر أن يتأنى ليشاهد ما سيحدث، أتت الساعة الواحدة ولم يحدث شيء. مرت دقيقة ودقيقتان، تذكر قول الشيطان له أن كل شيء يبدأ بعد الزغرودة، ثم من باب الفضول وضع يده في فمه وأطلق زغرودة.

في نهاية ذلك اليوم قيل إنه أكبر موكب تشهده أمدرمان، وقيل إنها أعلى زغرودة تتردد في السوق. وفي نهاية ذلك اليوم أيضا صعد ملاك إلى السماء فرحا بكلمة جديدة: موكب.

التقارير

١

كانوا يحملون أعلاماً بيضاء يا سيدي، قرابة العشرين علماً تتحرك بهدوء في آخر الشارع وتتجه نحونا، كنا مستعدين لهم في الارتكاز، صارمي الوجوه كما أمرتنا سيدي ولا نرد السلام، غاضبين، ولكننا حين رأينا أعلامهم قلنا إنهم ربما رفعوها استسلاماً. كان بياضها ناصعا جدا، وكانت لا تتحرك تقريبا، لا بالهواء ولا بأيديهم، كانت أعلاماً هادئة، تتقدم بها أيادي وأرجل هادئة، قلنا إنهم لا شك مستسلمين، لقد ابتسمنا سيدي. ظهرت أسناننا أخيرا بعد أسابيع من التجهّم، قلنا ربما هذه هي النهاية، لقد انتصرنا. ولكنهم حين اقتربوا منا، ظهر شيء من داخل ذلك البياض، لقد سألتنا لماذا ارتجفنا، لماذا تراجعنا هنيهة. لم تكن أعلام استسلام يا سيدي، لقد طبعو بداخلها صور الشهداء .

٢

يظنونها غمامة يا سيدي، يدخلون فيها ليتأكدوا إن كانت غمامة فعلاً. بنت صغيرة جلست تحتها وانتظرت المطر. في تقاطع الجمهورية قال أحدهم إنه بخور، كذب عليهم يا سيدي ولكنهم صدّقوه، وشمّوه، وصاحوا أنه بخور فعلا، هل تصدق يا سيدي؟ سيدي؟ كيف نقنعهم بأنه بمبان؟! في تقاطع القصر كانت هناك مجموعة تلعب بجواره الغمّيضة؛ يدخلون في الدخان ثم يدخل خلفهم آخر باحثاً عنهم، ولديهم ميس بجوار أحد الأكشاك من يدخل فيه فهو آمن. في شارع البلدية صاح أحدهم بأن الميس هو ارتكاز الشرطة، ركضوا نحونا يا سيدي، بحزم وإصرار. كنا فقط جزءاً من لعبتهم يا سيدي، أغضبنا ذلك، اندفعنا نحوهم بعنف، فتراجعوا عنّا لشارع وشارعين وثلاثة، لكنهم توقفوا عن الجري فجأة، بجوار لافتة مكتوب عليها عبد السلام كشة، والتفتو لنا غاضبين. من هو عبد السلام كشة يا سيدي؟

٣

لا أحد قال لهم ''التفتوا'' يا سيدي، رغم ذلك التفتوا نحو جهة معينة، بعد قليل اكتشفنا أن الموكب كله ارتص في شكل دائرة ملتفتين نحو نقطة في المنتصف، كانت تعليماتنا واضحة كما قلتها لنا، أن نغير لبسنا العسكري ونندس داخل الموكب لنعرف من يقوده، وحين شكّلوا دائرة ابتسمنا، الآن علينا أن نبحث فقط عن مركزها. بعد أن تجاوزنا صفّين وضع كل شخص يده في صدره، تحية العلم، فاضطّررنا للتوقف، ولوضع أيدينا في صدورنا، ولتحريك شفاهنا معهم، إنه نفس نشيد علمنا يا سيدي مع اختلاف بسيط؛ كانو يبكون بغزارة في منتصفه حتى أن زميلي سألني إن كانت الدموع جزءاً من النشيد؟ عندما انتهوا اختلطت صفوفهم يا سيدي واختفى الشكل الدائري، فكّرت أن السر لإعادة تشكيل الدائرة هو النشيد، فهتفتُ بصوت عالٍ ''نشيد العلم»، هَبّوا وارتصوا بسهولة يا سعادة، وبكل فرح كأنهم لم يرددوه قبل قليل، بكو مرة أخرى، الدموع فعلا كانت جزءاً من النشيد هنا، انطلقنا فورا لمركز الدائرة قبل أن تنتهي تلك اللحظة النادرة، إنهم يتمركزون حول شيء

فعلا، هناك جهة ينظرون لها ويتمترسون حولها وسنكتشفها الآن.. لكن.. لم يكن هناك شيء، مركز الدائرة كان فارغاً يلمع، مجرد مربع فارغ محوّط بلافتات بيضاء، يقف خلفها شباب عاديون ينظرون لبعضهم، سألتهم إن كان هذا مكان منصة سيقف عليها شخص ما، فقالوا لا، إنه مكان فارغ فقط. لم يكونوا ملتفين حول شيء بعينه، كانوا ملتفين حول أنفسهم.

٤

قماش أبيض يا سيدي، بطول عشرة أمتار وعرض متر ونصف تقريبا، يحوي ثلاثة آلاف اسم وأربعة آلاف توقيع وألفا وخمسمئة كلمة حب للوطن وقرابة الخمسمئة اعتراف بالحب لحبيبات ومحبوبين، وستمئة من أبيات الشعر وأربعمئة من الكلمات غير المفهومة أو المشتبِكة مع كلمات أخرى فطُمست ملامحها، في الصباح اختفى مخزن الشرطة الذي وضعناه فيه. كيف نبحث عن مخزن شرطة ضائع يا سيدي، أتتنا إشارة عن ظهور غرفة في خلاء القطينة، فقط هكذا، بنفس مواصفات مخزننا، حين فتح عناصر الشرطة الباب وتناولوا القماش بأيديهم، اختفوا يا سيدي، ومعهم الدورية، وبقي المخزن هناك، بعد أيام ظهرت الدورية وعليها القماش في موكب داخل مدينة كسلا، ولم يقربها عناصر الشرطة أبداً بينما تقدم نحوها الثوّار موقِّعين على القماش، قِيل بأن كل من مسّ القماش من الشرطة سيختفي، لذلك هرعنا لنغسل أيدينا، لكن الأمر لم ينفع، اختفينا كلنا في ذلك اليوم بأزيائنا العسكرية، وجدنا أنفسنا في أحد شوارع عطبرة مستلقين على الرصيف، حين رجعنا الى الخرطوم

اختفينا مرة أخرى، وظهرنا داخل جنينة ليمون في مدني، ثم وحلنا في مستنقع طين في القضارف، حين ظهر القماش في منتصف موكب بحري انطلقنا نحوه يا سيدي، الثوّار تصدوا لنا، لكن بعد قليل فتحوا لنا الطريق بكل سهولة، حين عرفوا بأننا لا نريد مُصادرة القماش، بل العكس؛ ولكي لا نختفي مرة أخرى؛ كنا نريد التوقيع عليه.

٥

خمسة أو ستة نساء، ثمانية، تسعة، لالا، كُثر يا سيدي، لكن العدد ليس مهماً. يقفنَ هناك، على مبعدة من الكاميرات بحيث لن تلتقط العدسة المقربة وجوههن، السر في المسافة يا سيدي، يعتقدن أنهن بعيدات عن الحدث، يعتقدن أنهن يجلسن على قارعة الطريق، والتاريخ، لا يعطين الأمر كبير أهمية. نسوة جالسات أمام براميل الماء والعصير، في انتظار لحظة فقط، يقترب فيها الموكب بما يكفي، ليرينه أمامهنّ هكذا. يجلسن هنا منذ ساعتين يا سيدي، إنهنَّ حتى لم يتذوقن العصير، ذلك عصير الضيوف الذي لن يتذوقه سيد البيت حتى لمجرد معرفة مقدار السكر فيه، سيجيء الموكب من هنا، سيمرُّ على بُعد أمتار منهن، وسيغشاهن، يتأهبنَ لتلك الغشوة يا سيدي، يتأهبنَ للمس النهر، ولا يَعرِفنَ أنّهنّ النهر. يُعِدن لفَّ تِيابهن مئة مرة، من القلق يا سيدي، من اقتراب الوقت. الموكب الذي ننتظره نحن بالبمبان هنَّ ينتظرنه بالماء والاعتذارات.

٦

”الكراتين“ تعرف أنها كراتين يا سيدي، إنها لا تحاول أن تحمي أحداً أبداً، لا تحاول أن تكون شجاعة أو أن تؤدي دوراً آخر خارج هويتها، إنها فقط تقف هناك، بيننا وبينهم، بكل ضعفها وهشاشتها، فقط تقف، إنها لا تمثّل أي شيء الآن، تعرفُ أن الطلقة تخترقها بسهولة، تعرفُ أنها قابلة للحرق بشرارة فقط، قابلة للثني، قابلة لكل شيء يا سيدي. الذين وراءها يعرفون أنهم يحتمون بكراتين أيضا، لا أحد يتظاهر بشيء في شارع القصر، إنهم فقط شباب يحتمون بشيء لن يحميهم، وهم يعرفون أنه لن يحميهم، أرجوك أخبرني يا سيدي، إذا كان هؤلاء مجرد شباب يحتمون بكراتين في الصف الأول من المعركة، وأنا الذي أحملُ بندقية، وألبسُ خوذة، وأقفُ خلف مدرّعة، لماذا أنا الذي أشعرُ بالضُعف؟

٧

أحب التعليمات الواضحة المختصرة، تلك التي لا أحتاج مجهودا لحفظها، مثل تعليماتك صباح اليوم. قلتَ بأن مهمتنا هي إعادة المكان لحالته الأولى، حالته الفطرية. هذه جملة رائعة يا سيدي، ولقد فهمناها فورا ونفّذناها في شوارع العربي. حين يكتظ شارع بالشباب نرمي البمبان، يعمل عمل السحر. يا لها من مهمة نبيلة، أن نُعيد الشوارع إلى سيرتها الأولى، هادئة من الخطوات، خفيفة وصامتة، أن نزيح الثقل عن كتف البرندات، أن نجعل الشجرة تتأمل ظلها على الأرض صافياً بلا أي جلّاس. لكن دعني أخبرك ببعض الملحوظات الغريبة يا سيدي، كأن تعليماتك آلت للعنة سحرية، ثمة شجرة نيم في شارع البلدية غادر ظلُّهَا مع الشباب، بينما رجعت هي لحالتها الأولى: بذرة. وكَشك جلس على الأرض وأعاد صياغة حديده على شكل قارب، حالتهُ الأولى يا سيدي. وثمة برندة بالقرب من شارع القصر، كلما قذفناها بالبمبان اهتزت ورَبَت، وأنبتت ثائرا، يلبس فنيلة داخلية ويحمل عصاة، نقذفها بالبمبان مجددا فيخرج نفس الثائر يا سيدي من نفس المكان، صاروا ثلاثة وأربعة وعشرة، هل فهمت يا سيدي؟! يُقال بأنّ هذا الثائر كان هنا قبل البرندة.

٨

طالع فوق الكبري يا سيدي، أعني فوق فوق الكبري، أعني أنه طالع فوق سقف الكبري، ليس للكباري سقوف؟! نعم ولكن كيف أصوغها لك يا سيدي! هل تعرف كبري السلاح الطبي المسقوف؟ حسناً هذا الشخص كان طالعاً فوق الحديد الأعلى للكبري، لم تفهمني بعد؟! اعذرني لكن لا توجد لغة كافية لتصوير الأمر، أخشى أن اللغة نفسها جديدة على هذا الموقف. في العادة الكبري هو ممر لعبور النهر، أن تعبر النهر دون أن تمشي على النهر، لكن أن تعبر الكبري نفسهُ دون أن تمشي على الكبري! فهذه جديدة تماماً.. هؤلاء الأولاد يقومون بأفعال لا نعرف كيف نصوغها لغوياً. في مكتب التقارير قالو بأنها ثورة على اللغة، في قسم التقنية يتحدثون أنها ثورة هندسية على الكبري نفسه.

كيف طلع؟!.. لا أعرف، وددتُّ أن أحضر تلك اللقطة لكني كنت مشغولاً بقمعها.

٩

كانا يحملان كرسيين، ويتسآلان أين يجلسان بالضبط، أحدهما يقول: هنا، والآخر يريد أن يجلس دائماً بعد عشرة أمتار.. بعد عشرة أمتار كنا نقف نحن، خمسمئة جندي مشكلين صفوفاً مترادفة واقفين منذ ساعتين، مطلقين لثلاثمئة قطعة بمبان، نصفها عاد لنا راجعاً. منتظرين فرج الله والأوامر، منتظرين الساعة السادسة ميعاد تغيير المناوبة، منتظرين أن يسأموا.. الكراسي كانت فرج الله، حين رأيتها تفائلتُ، طلبتُ سيجارة من زميلي وتقققدتُّ الساعة وابتسمت، فرحتُ يا سيدي، سأرجع مبكرا للبيت، سأتذوّق النوم. لكني كنت وحدي الفرحان من بين جميع الجنود، البقية غضبوا، واستاؤوا وتعصّبوا ولعنوا أيامهم، لم أكن أفهم، كنتُ أعتقد أن ظهور الكراسي يعني التعب، كنت أعتقد أن ثائراً يحمل كرسيا هو ثائر متعب يريد أن يرتاح قليلاً، لم أكن أعرف ما الذي تعنيه الكراسي،لم أكن أعرف معنى الجلوس في الصف الأول من المعركة.

انتظارات حضرة الصول

(قصة طويلة)

لا شيء مذهل حقاً بعد خمسة وثلاثين عاماً من العمل في مباحث الشرطة، فكرَ في ذلك أثناء ترصّده لبائع مخدرات في صينية السوق المركزي، كانا عاديين، المراقِب والمراقَب، والشارع ما قبل الزحمة اليومية، والباعة المتجولون الذين يراجعون بديهيات حياتهم قبل فتح بضاعتهم لعرضها، وشرطي المرور الذي لم يصل لشارع عمله بعد، سامحاً بكل التجاوزات المرورية التي رآها في الطريق إلى هنا، والأفق الذي اتخذ لونا فضياً، والساعة الخامسة صباحاً، وبقايا البمبان التي تخنق الجو، هل هي عالقة منذ ليلة أمس عصيبة أم أنها مظاهرة قامت هنا فجراً. كل شيء يمكن أن يحدث في الخرطوم.

يفكر في الرجل الذي يراقبه الآن، كانا متشابهين إلى حد ما، كلاهما ينتظر نفس الشيء، بنفس ملامح الوجه، بنفس اللامبالاة الهادئة مما يجعل الانتظار نفسه فعلا غريباً، أن تنتظر شيئاً لساعات، لأيام، لأسابيع، بلا مبالاة، كيف

يحدث ذلك؟ يصرُّ حضرة الصول عينيه ويشدُّ حاجيبه محاولاً أن يدقِّق النظر في الرجل من بعيد، لقد نسي إحضار منظاره الذي يقرّب ملامح الوجه، ربما سبب خفي أنساهُ له، كراهيته للمنظار؟!، بالأحرى يكره أن يُفعل له المثل؛ إنها إهانة حقاً أن يُنظر لأي إنسان بآلة مقربة كهذه تكشف أصغر حركات الوجه، رجفة العين، هالات السهر، خطوط التعب في أعالي الخد، هذا إن ميّزها الناظر عن خطوط التعب العادي، ليس تعب العمل، أو تعب اليوم، بل التعب المزمن الجالس هناك فقط لا يزيحه شيء. ثم ماذا يفعل المنظار أصلاً في حالة كهذه، فهؤلاء مجرد تجار مخدرات لعناء منتشرون، ويفعلون ما يفعله التجار الملعونون كلهم، يستلمون ويوزّعون ثم يعودون إلى منازلهم في آخر الليل ويأتون في الصباح كالموظفين والعمال ورؤساء الأقسام ورجال الشرطة. ما الذي لا يمكن رؤيته بالعين المجردة، ما الذي يحتاج لتكبيره ورؤيته بوضوح في هذا المشهد اللعين.

لا يستطيع حضرة الصول ألا يفكر وهو ينظر نحوه، جالساً هناك على الرصيف بارتخاء وطمأنينة، هل يبدو كتاجر مخدرات؟! يبدو وديعاً، بريئاً تماماً، لطيفا مع المارة، ومع الشحاذين، يبدو ككل مجرم مخضرم، يبدو شخصا طيباً. ليس اللصوص اليوميين، أو المبتدئين، أو ذوي الجرأة من

الشباب، بل القُدامى؛ الذين فعلوا ويفعلون ما فعلوه لسنوات طويلة بحيث تناسوا أنهم مجرمين في نظر أنفسهم، وربما دافعوا عن جرائمهم وطرقها ضد مجرمين آخرين أقل جودة، وقد يقدّرون عملهم تقديراً عظيماً فينظرون لماضيهم كلوحة متقنة، بغضِّ النظر عن بشاعتها، ولكنها متقنة.

يفكر حضرة الصول في الجودة، في التقنيات، في صلابة الأفكار التي تزرعها الممارسة خلال السنوات الطويلة، ما تعطيه لك وما تأخذه منك، فلماذا هو الآن بهذه الخِفة؟ وقد مارس عمله طيلة هذه السنوات بما يتطلّبه من جودة، قَبض على أكبر عدد من المجرمين، كشف عشرات الخُطط المتقنة، خرب عشرات اللوحات التي كان المجرمون سيلتفتون لها بابتسامة في أقصى أعمارهم، فلماذا يشكّك في كل شيء الآن، ويضطَّرب قلبه في الصباحات، وينظر بعين الريبة فيما يفعله وما ظل يفعله؟!

رغم ذلك ما زال يستيقظ مبكراً في كل يوم، لا يستطيع ألا يستيقظ مبكرا، وما يزال يهبُّ نحو العمل بكل بساطة، لا يعرف لماذا يهب نحو العمل بكل بساطة، كان يدرك بطريقة ما أن المهم ليس المجرم ولا القبض عليه، ولا العمل نفسه ولا الأوامر، فما هو المهم إذن؟ ولماذا هو هنا، في الصينية المركزي، في هذا الوقت المبكر من الصباح، ومصمّم

على أن يستمر في النظر من هذه الجهة نحو ذلك الرجل، ماذا سيحدث؟

يعرف حضرة الصول ألّا شيء سيحدث حقاً. كم مرة كان يراقب شخصاً كهذا، كم مرة انتهى انتظاره بالقبض على تاجر المخدرات أو فرّ منه، يفكر ألا فرق بين الحالتين، وكم مرة آل الأمر لمطاردة عقيمة داخل السوق، في المعمورة، في أزقة مايو، في شوارع الثورات، في خلاء أمدرمان حين انقلب بهم التاتشر ومات من مات لينجو هو، ويعود للعمل مستلما مهمة جديدة متكررة، ثم أخرى وأخرى.

حين أتى وقت الفطور أشاح وجهه عمن يراقبه بكل سهولة وذهب نحو المطعم، فكّر أن يشتري فطوراً لتاجر المخدرات أيضاً ولكن كيف يوصله له، كفاعل خير؟ كشخص يهمه أمره حقاً؟! يهمه لأسباب مغايرة، ضَحِك بصوت عالٍ أمام عامل المطعم، أعاد تقليب الفكرة في رأسه قبل حتى أن يطلب شيئاً. لا فرق بيننا أيها المجرم سوى أنك مجرم وأني سأقبض عليك، بعد أن ينتهي انتظارك وانتظاري معاً، أنا جالس هنا في انتظار أن تلبسكَ التهمة، أن أراك مجرماً حقاً باليونيفورم الكامل، في خضُمّ الجريمة، داخل الفِعل نفسه، أنا أعرف أنك مجرم وأنت تعرف أنك مجرم، لكني لا أستطيع القبض عليك قبل أن تفعل الفعل، وأعرف أنك

ستفعله، وأنت تعرف أنك ستفعله.

يفكر حضرة الصول في هذه الألعاب اللغوية متوقعاً في كل مرة أن يصل لخلاصة ما، معادلة تُفضي لاستنتاج ربما يغير هذه القوانين المليئة بالخطوات والانتظارات، لكن الأفكار نفسها كانت كذلك، دائرية ومتوّهة كالخرطوم، لا تؤدي لأي خلاصات، النقطة نفسها نذهب ونرجع إليها، مفترضين دائماً أن شيئا جديداً حدث، أو قد يحدث. فكَّر جاداً أن يكسر هذه الحلقة ويذهب ليجلس مع تاجر المخدرات عند الرصيف، يتحدث معه عن الانتظار ربما، وعن شراكتهما فيه، وعن كيف يمكن أن يصبح انتظاراً مثمراً يلغي جمودية المشهد والصباح الرتيب الذي لا يستطيع أن يكونا فيه سوى ”شرطي مباحث» و ”تاجر مخدرات» فقط، يضحك مجدداً أثناء انتظاره لطلب الفول، وحين يستلمه ويرجع ألى مقعده في العربة وينظر من نفس النافذة لنفس الاتجاه لا يجد تاجر المخدرات. ترتجُّ في يده سندوتشات الفول من الضحك فيضعها في المقعد الآخر، يخرج من العربة للشارع ويتلفّت، يفكر في ألم ظهره، في الصداع الخفيف المخرِّب لمثل هذه الانتظارات، يفكر بأن المجرم يستلم بضاعته الآن بعيداً عن تطفّل العالم وتطفّل الشرطة، وبأنه سيرجع لأولاده هذا المساء آمناً، سليما،

مُعافى من الحبس و القيد، بسبب صدفة لعينة، صدفة مضحكة، بسبب وجبة فطور.

حين سأله رئيسه في وحدة المباحث عما حدث بالضبط لم يفكر حضرة الصول في أن يكذب أبداً، لقد كتب ما حصل في الأمس مُسبقاً في تقريره، أنه راقب التاجر لأربع ساعات كاملة ابتداءً من منزله في أمدرمان منذ الفجر وحتى وصوله للصينية المركزي، ثم ذلك الانتظار لمدة ساعة ونصف في ساحة الصينية، ليخرِّب الأمر كله بوجبة الفطور تلك التي قرّر أن يتناولها في موعدها بالضبط، كل ذلك كان مكتوبا في التقرير، بأخطاء إملائية كثيرة وبتنسيق سيء لكن بخط واضح وبجُمل مباشرة مما أوقع رئيسه في حيرة غريبة، حين استدعاه لم يكن عند حضرة الصول ما يضيفه حقاً، كان دواماً يوميا فاشلا، لكنه حسب العمل فمجرّد مهمة غير مُنجزة، وبالتالي مؤجلة ليوم آخر، الغريب في هذا الوضوع كله هو هذا الصدق. أخبره الضابط بأن صدقه في التقرير سيضطّره أن يسأله عدة أسئلة أخرى.

ـ ”هل خربت كل هذا الجهد بسبب وجبة فطور الساعة التاسعة فعلاً أم أن هناك أسباب أخرى؟ أقصد أنك كنت تتحرى حول هذا المتهم منذ شهر، وبالأمس كنت على بعد دقائق من الإمساك به متلبساً، لكنك بدل ذلك

تذهب للمطعم من أجل فطور في موعده، بل حتى مبكِّر عن موعده؟!»

يحتار حضرة السؤال مواصلاً صمته، لم يكن متأكداً إن كان الضابط يتوقع رداً جاداً على سؤاله أم يريد فقط أن يسجل أنه سأله هذا السؤال ويغضّ النظر عن الإجابة كما يحدث دائماً، لكن الضابط حين يعيد قراءة التقرير لا يستطيع سوى انتظار توضيح من حضرة الصول، فغض النظر عن الحاجة الرسمية للإجابة فهو يشعر بحاجة حقيقية في مكان ما داخل بطنه، ألم متحرّق ولذيذ وفضولي لمعرفة هذا الشيء الغريب والنادر الذي حصل بالأمس، لكنه لا يُظهر فضوله الشديد لحضرة الصول بل ينظر في عينيه ويبرم شفتيه بانزعاج، يُخرج حضرة الصول سيجارة ويقول:

"هذا هو ما حدث .. ببساطة، وقد رأيتُ أن أكتبه كما حدث بالضبط»

يعرف أن هذا أول تقرير في حياته يكون فيه صادقاً تماماً، أن يصف المهمة كما حدثت، حتى الملامح الإنسانية اللطيفة المميزة لقسمات المجرم، حتى جدِّية العملية نفسها بألفاظ معبرة، بخطواتها وإجراءاتها ورهقها وروائح الصينية المركزي وضباب الصباح الكئيب. يصيح فيه الضابط:

”هذا كله يحدث.. لكن الصدق علامة خطيرة»

ثم يتأفف ويُردف:

”إننا نعمل مع بعضنا لسنوات يا حضرة الصول ولم يحصل أن كتبت تقريراً كهذا، فما بك الآن».

حين يطول الصمت ويبدأ حضرة الصول بالتفكير في الرد، ينظر الضابط لساعته -كما كل مرة- ويقول إن لديه اجتماعا. يرفض الضابط حتى أن يستغرق في مناقشة استفهاماته وحيرته، بعد أن ظن حضرة الصول للحظة أنه جاد جداً وربما سينتظر اليوم كله من أجل إجابة. ثم فجأة يتراجع هكذا! .. نعم.. يعرف ألا شيء مهم حقاً ولكنه تلمّس للتو رغبة حقيقية في انفعال الضابط. يضحك حضرة الصول حين يفكر أن وقت الفطور هو السبب أيضا. وأن الضابط فعل ما فعله هو بالأمس تماماً بالمهمة، لكن لا تقرير سيذكر ذلك، ولا حتى الضابط سيفكّر في الأمر لهذه الدرجة، يقلِّل الناس من قيمة الأشياء البسيطة، العادات اليومية، والحاجات الطبيعية، مشية الحمّام وشرب سيجارة والنعاس والملل والكآبة المفاجئة وقرصة نملة صغيرة، بل حتى رغبة حك بسيطة داخل اجتماع قد تُحدث مضاعفات مؤثِّرة. الصدق علامة خطيرة فعلا، رغم أن رئيسه لم يسترسل في شرح جملته حتى أو غرضه منها،

بدل ذلك ستُعاد العملية من أولها، وستبدأ مرة أخرى دورة الإجراءات ضد تاجر المخدرات.

أحسَّ بطعم الصدأ في فمه، وفكَّر أن لحظة الفطور تلك كانت تتويجاً سيئا لخط إجرائي كامل ومتعثر بما يكفي لئلا يتعثر بوجبة فطور. لكن لا أحد يجب أن يعترف بذلك، أو ينتبه معه حتى، ثم أن ذلك من صميم عمله؛ أن يقول دائماً شيئاً غير ما حصل، التغييرات والتعديلات هي الأصل في التقارير وليست الجمل الأصلية المكتوبة بدافع التوثيق نفسه، بحيث لا يجب أن تذهب التقارير حاكية كل شيء، للتقارير واقعها الخاص وعالمها الخاص، لا أحد يريد أن يعرف تأثير وجبة فطور على السِلم العالمي، إنها ليست وجبة فطور ملك، بل مجرد صول في الستين من عمره واقف في الصينية المركزي، يراقب وحده تاجر مخدرات في الخمسين من عمره، تاجر المخدرات نفسه جالس على الرصيف ويتثاءب معظم الوقت، وربما ملّ مثله من الانتظار، ومن العمل نفسه، ربما فكّر أن يعتزل مهنته أيضاً، ليس مدفوعاً بوخز الضمير من لا أخلاقية بيع المخدرات، وإنما من تعب المشاوير، الانتظارات، التلفتات الكثيرة، الإحساس الدائم بالآخرين والشك فيهم وبضرورة ترك منفذ للهرب، في العيش هكذا على الحافة، بحيث –من اعتيادها– صارت

الحافة نفسها مملة. كل ذلك يبدو في وجهه المستاء، دون أن يحس بعيني حضرة الصول التي تراقبه منذ أيام، أو بوجبة فطور الأمس، أو بالتعثر المستمر لإجراءات تهمّه شخصياً، تعثرات بسيطة تنقذه في كل يوم جديد وتعيده لأهله سالماً ومليئاً بالمال، وبالحياة والأمل.

حين يعود لمكتبه يبدأ بكتابة خطاب لميزانية جديدة لمراقبة التاجر، عربة، منصرفات للعربة، تصريح وقود مع ذكر كميته، وسادة إضافية لمقعد السائق إثر أوجاع ظهره، سجائر، ولاعة. فكّر فيما يحتاجه الشخص فعلاً لعملية مراقبة كهذه، بما أنهم يطلبون منك كتابة الاحتياجات كلها، ما يتطلبه الأمر حقاً لأن تظل جالساً هناك تنتظر وتُراقب، أثناء تداعي أفكار لا يمكن كبحه، ما الذي يحتاجه الشخص لأن يقوم بعمله دون أن يُشكِّك فيه، دون أن تنتابه هواجس عدم الجدوى، وكيف يهرب من شيء حاد وواقعي جداً هو السبب في ما يحدث هذه الأيام الغريبة، الملل، لم يحتج للتفكير كثيرا للاعتراف بهذا الشيء الصغير، لقد ملّ من عمله لفترة طويلة جداً، دون أن يعترف بذلك، أما الآن فيعترف بكل سهولة أثناء كتابة متطلبات عملية المراقبة، بعد خمسة وثلاثين عاماً من الخدمة وبجانب آلام كثيرة ووخزة طاعنة في ظهره، كان الملل كان الباعث الأكبر

لكل تلك الأفكار. ما الذي يضيفه للمتطلبات في الورقة من أجل محاربة الملل؟ ضحك مرة أخرى حين تذكر جملة الضابط، الصدق علامة خطيرة جدا، ولن يستطيع أن يكون صادقاً مرتين في يوم واحد.

حين وقف أمام منزل تاجر المخدرات بعد عدة أيام لم تنكبح أسئلة رأسه أبداً، كان التاجر عائداً من صلاة الصبح في المسجد، راقب حضرة الصول مشواره، حياته العادية، وتحدثه الطبيعي مع الناس، بينما يقف حضرة الصول في محطة المواصلات دون أن يركب الحافلة الذاهبة للتو، بما لا يمكن وصفه بالطبيعي، فيتجول هنا وهناك بحثاً عن مكان لا يلاحظه فيه أحد، بينما تاجر المخدرات يسلّم على المارة ويخلق حواراً مع جاره ويتوقف عند المحطة بعربته ليقلّ بعض الأشخاص، متآنسا معهم أثناء المشوار الطويل. يضحك حضرة الصول المنطلق خلفهم حين يفكر أن من صميم عمله أن يستمر في الافتراضات السيئة، مثلاً أن من أقلّهم التاجر معه هم تجار مخدرات أيضاً، كلهم انضموا لدائرة الشبهة رغم أنه أقلّهم من محطة جوار بيته فقط، ثم لابد أن يفكر في أصحاب الدكاكين الذين سيسلّم عليهم في الصينية المركزي كتجار مُحتملين، أو الذين سيتحاشى السلام عليهم، بالذات الذين يتحاشى السلام

عليهم يجب أن ينضموا أيضا لدائرة الشبهة، وبائعو التسالي الذين سيتوقف عندهم. لماذا هم بالذات دونا عن كل بائعي التسالي، والمطعم الذي سيفطر فيه. يضحك حضرة الصول بشدة من داخل عربته، يفكر في نفسه كشخص يُراقب آخر ويعيد صياغة حياته بكل هذا الاستمرار في النظر والافتراضات والاتهامات، يأخذ نفسا عميقا ويشعل سيجارة مفكراً أن عليه التوقف عن التفكير، لكن ذلك لن يحدث ما لم لم يتوقف عن المراقبة، وهو الذي لم يعد يفرّق بين المراقبة و التفكير.. ثم الأسوأ، كيف يحدّ من توسعات التفكير نفسه، كيف يتأمل حياة تاجر المخدرات دون توقع احتمالية زِيف كل ما يراه أمامه، فحركات التاجر كلها قابلة لأن تكون رموزاً، التفاتاته نحو الجهات ربما هي إشارات، طريقة جلوسه على الرصيف ذاتها ربما تشكل حرفا ما يقرأه آخر الآن، ربما حين يجلس القرفصاء فذلك يعني واو أو دال أو ألف، ربما جلسته هذه بالضبط تعني أن شرطياّ يراقبني فلا تأتوا، يبتسم حضرة الصول. ربما أنا المراقب هُنا، معتقدا أنني الناظر لكل شيء، بينما هم من ينظرون إلي منتظرين أن أسهو للحظة، أو أن أقودهم لآخرين من الشرطة يراقبون أيضاً. ضحك حين فكّر أن يرفع ورقة يكتب فيها أنه وحده فعلا لخلل في ميزانيات المراقبة، يعيد تقليب الفكرة ضاحكاً ثم متأملا في إمكانية أن يكون مكشوفا فعلا، وأن لا شيء

سيحدث بسبب هذه المعلومة البسيطة، وأن انتظاره ربما يدوم للأبد لأن الأشياء التي ينتظرها تحدث الآن فعلا –خارج نطاق رؤيته–، في مكان آخر، وأن ما يحدث أمامه الآن مجرد تمويه، مجرد تظاهر بانتظار شحنة مخدرات بينما وصلت الشحنة ووُزعت وبيعت واشتُريت واستخدمت إلخ إلخ ، ماذا أنتظر أنا، ينهر الأفكار كما الذباب، إنه حتى لا يستطيع التفريق بين جدية وهزلية أفكاره، صنفها كإحدى تجليات العُمر بحيث يبدأ بهزّ الأمور اختباراً لها، فيختلط الجد بالهزل، الواقع بالخيال، وما يحدث بما لا يمكن أن يحدث. فيسقط كل ذلك على المهمة الحالية، وعلى تاجر المخدرات الواقعة عينه عليه الآن، وعلى نفسه، بظروفه الاستثنائية، خصوصية عمره واختناقه بملل حاد ومشاعر سلبية، ربما يحركها حر الطقس فقط، أو حساسية موسمية، فهل ينتظر جوا آخرا ليرى مصير ما يشعر به في هذه الأيام؟ هل كان عليه كتابة أشياء إضافية في ورقة متطلبات العملية؛ المزيد من الشغف مثلا، المزيد من الدوافع للاستمرار في هذا العمل الذي لم يعد كما كان بالنسبة له، المزيد من الأموال للتسالي والسجائر ورقائق البطاطس وربما أشخاص ليتحدث معهم أثناء الانتظار، ولعربة لن تتعطل أبداً مثلما تعطلت هذه التي يقودها الآن قبل عدة أيام، ربما زوجة لا تؤخره عن العمل بمتطلباتها الصباحية، وأولاد أقل ضجيجاً

وإزعاجاً.

إنه يرى حياته كلها الآن، أثناء مراقبته للرجل الذي لا يريد أن يفعل أي شيء أيضاً، سوى الجلوس هناك.

شغَّل الراديو متوقفاً عند الأخبار، ثم أغنية حزينة للجابري، ثم أغنية سعيدة لمحمد وردي، أشعل سيجارة وفكّر في الوقت الذي لا يمر، وحين سرح للحظة عن التاجر ثم عاد للنظر بجهته لم يجده.

قام للحظة عن مقعده وخرج من السيارة متلفتاً، أطلق ضحكة مستمرة جعلته يتكئ على العربة، تأمل مصيره المضحك وهو ينظر في وجوه المارة الكُثر، هل سيكتب في التقرير أنه كان يستمع لأغنية محمد وردي التي يغني فيها عن عصافير الخريف، وأنه سرح للحظة في عصافير حقيقية خارج النافذة مفكراً في هذه الصدفة الغريبة المتزامنة، وأنه أشعل سيجارة في تلك اللحظة لأنها كانت أجمل من كل ذلك الانتظار الغبي، أجمل من المهمة ومن سنواته الأخيرة كلها، مدفوعاً بأحاسيس عارمة لنفث الدخان. وأنه داخل تلك اللحظات أتته فعلا وسوسات صغيرة من داخله بضرورة أن يلتفت للتاجر لكنه تساءل ما الذي سيجده فلم يلتفت؟ ثم إنها دقيقة واحدة فقط سيجرّ فيها بضعة أنفاس، دقيقة كانت كافية تماماً لأن يختفي تاجر

المخدرات.

ركب عربته وأدار المحرك، وحين استعدل في الطريق وهمّ بالمغادرة رأى عربة التاجر تمشي أمامه، فانطلق وراءها.

داخل الطريق كان مندهشاً مما حدث، ومن البساطة التي حدث بها، ومن إمكانيات الصدف وتقاطعاتها، فصَّدفة أنقذت التاجر قبل قليل، وصدفة أخرى أوقعته الآن تحت عيونه.

كان الأمر أعمق من الضحك هذه المرة، كأنّ حضرة الصول قد فهم شيئا، رغم أنه لم يفهم أي شيء، ولم يستنتج أي خلاصة، فما حدث أنه _والمجرم الضائع منه_ كانا في نفس الشارع ونفس الاتجاه، فقط، كان بإمكانه أن يكون يوماً عادياً وفاشلاً أيضا ككل الأيام والسنين الأخيرة السابقة، ولكن ليس هذا ما حصل، لماذا استبشر خيرا بالصدفة وهو لم يستبشر خيراً بشيء منذ زمن بعيد، فكَّر في عبثية الأمر، وأنه ربما في غَمرة فرحه تجيء صدفة أخرى تجعله يفقد التاجر، ثم صدفة أخرى.. وهكذا الى ما لا نهاية.

شغّل الراديو وبدّل قنواته ثم ارتخى أكثر على المقعد، ولم يتساءل أبدا عن مسار الرجل الذي يطارده ولم يتوقع مقصده

حتى، ضحك حين أتى وقت الفطور، حين فكَّر للحظة بأن يتوقف عند مطعم كما فعل من قبل متذكراً ملامح الضابط المنفعلة، فجأة أحس بأنه مرّ بهذا الطريق قبل قليل، توقف مع وقفة مفاجئة للتاجر وانطلق مع انطلاقته في شوارع (الخرطوم اتنين) الداخلية، ثم يخرج منها ويدخل بشوارع الصحافة، ليحتار حضرة الصول فيما يعنيه ذلك؛ فكّر أن المجرم لا يعرف طريقه أو وجهته، أنه لا شك ضائع، وآخر ما يريد أيّ شخص هو أن يطارد شخصاً ضائعاً. توقع أن أحداً وصف له وجهة خاطئة، ثم خلال انعطافة أخرى وشارع متكرّر آخر فكّر أن الضائع ليس التاجر وإنما الشخص الذي يصف له الوجهة بالهاتف. ضحك للمفارقة، وكان ليضحك لمفارقة أكثر عمقاً لولا أنه تعِب فعلا من دوران بلا جدوى، وحينما وقف التاجر وقفته التالية عند بيت في ''الصحافة شرق» تنفّس حضرة الصول الصعداء وراقبه من خلف شجرة بعيدة، كان تاجر المخدرات قد دخل منذ عشر دقائق وكان حضرة الصول على وشك اتخاذ قرار بالمغادرة إثر تكالب أوجاع ظهره وبما أنه حفظ عنوان البيت كإنجاز كافي ليوم واحد. لكن الباب انفتح أخيراً وخرج التاجر يحمل شوالاً وضعه في صندوق العربة ثم انطلق بها، وانطلق حضرة الصول خلفه بارتخاءة أكبر على الكرسي، وبإحساس الانتهاء.

نعم، انتهاء المهمة، او الجزء الصعب الممل منها، ثم انتهاء تاجر المخدرات نفسه واقتراب القبض عليه متلبّساً بهذا الشوال. وربما انتهاء أشياء كثيرة، فمن يعلم مع قد يحصل بعد تقاريره العجيبة تلك و اندهاشات رؤسائه منه، ربما سيُنقل لمكتب ما، أو سيأخذ إجازة، أو ربما سينام في الثكنات لعدة أشهر بلا عمل حقاً، أو أو، ذلك الاحساس الغريب غير المريح الناتج عن رؤية الشيء الذي تبحث عنه منذ مدة طويلة، خط النهاية العادي، حيث لا تنتظرك جائزة، أو توبيخ، بل إجراءات، تسليم وتسلّم أشياء، مصافحة عدة أيادي، ثم تنفس بارتياح أكثر خارج المكتب، وبحث عن سجائر، ومشي نحو البيت.

توقف آخر لتاجر المخدرات قطع سيل الأفكار، عند أحد بيوت الديم حيث دخل ورجع بشوالين إضافيين ليضعهما في صندوق عربته، هل بدأ حضرة الصول بالاندهاش؟. ثلاث شوالات؟ أي نوع من المخدرات هذه، فالمعلومة التي لديه تقول أنه تاجر هيروين ثم تنقل بين عدة مواد ليتاجر مؤخراً في هذه المادة الجديدة، ما اسمها، يحاول ان يتهجى اسمها، ميثافتمين، ولكن ثلاثة شوالات من مواد كهذه تعادل.. ملايين! وقبل أن يكمل حساباته أتى الرجال بشوالين إضافيين من داخل البيت ثم انطلقت العربة لينطلق

حضرة الصول خلفه بانتباه شديد، ودهشة، دهشة؟ لم يندهش منذ مدة ولكن هذه الكمية في صندوق العربة كانت كبيرة جداً، تناول الهاتف واتصل بإدارته طالباً دورية قبض كاملة مسلحة جيداً لتلحقه، كان الضابط قد سأله إن كان متأكدا فعلا من عدد الشوَّالات، الأغرب أن عددها ارتفع لعشرة شوالات في التوقف القادم في سوق مايو، ليتساءل حضرة الصول عما يحدث بالضبط، تسارعت دقات صدره، ارتجفت يده على المقود رغم كل تلك السنين من الخبرة، وأيقن أنه الآن –في هذه اللحظة– مندهش، مندهش تماماً لدرجة عدم تصديق ما يراه، متسائلاً إن كان هذا تتويجاً حقيقياً لمسيرته الطويلة في الشرطة.. فكّر أنه سيتقاعد فوراً وسيعيش على مكافآت هذا الاعتقال العظيم وشهرته وتكريماته. وربما يسافر لمكان ما تأميناً لحياته من أصحاب كل هذه التجارة الخطيرة، وربما يرافقه عدة حرّاس، وربما يتوجونه بكلمة ''الخبير''، فمن المستحيل أن يكون شخص واحد فقط هو المسؤول عن تحري ومراقبة وقبض كمية كبيرة كهذه دون أن يلقب بالخبير. وربما يرقّى فعلا، وربما يجد في كتفه نجمة أو أكثر، ضحك شاهقاً في تلك اللحظة. تناول مسدسه من جنبة بنطاله وظل متشبثاً به، صار يتلفت أكثر متوقعاً المزيد من الأشخاص السريين كحماية لكل هذه البضاعة لكنه لم يلحظ أي شبهة،

كان كل شيء عادياً، ،إلا هو، المراقِب لصندوق العربة الثمين، الذي يتأرجح العالم ويرتج في صدره الآن، أخذ نفسا عميقا انساب بسهولة من فتحتي أنفه، وضحك حقاً من الدهشة بعد أن كان يضحك الأيام السابقة من اليأس والبؤس، أشعل سيجارة ورماها في منتصفها حين توقفت العربة مجدداً في إحدى مناطق مايو، حيث نزل تاجر المخدرات ليتناول ساندوتشاً من مطعم ما، فكّر حضرة الصول في برودة الشديد هذا، في جرأته على السير وحده مع كل هذه البضاعة، كان حضرة الصول نفسه جائعاً أيضا ولكن، ما يعتمل الآن في صدره شيء عجيب كاد أن ينساه، بالأحرى لقد نسيه فعلا منذ زمن طويل، كل هذه الدقّات والترقُّب المشوب بالغرابة والتشويق، أن يحدث كل شيء بهذه الخطوات البسيطة، ليقع فجأة على مهمة العمر الأسطورية. فكّر أنه لن ينام لعدة أيام لو استطاع هذا الشخص الهرب، لذلك لم يُبعد نظره للحظة عن التاجر في المطعم وصندوق العربة على الرصيف، اتصل متأكداً من الدورية التي اتخذت مكانها في إحدى نقاط شارع مايو في انتظار عربة بمواصفات مميزة وبنمرة رخصة غير مميزة. حين وصلت العربة فعلا كان العساكر على أمشاطهم، وتمسُّ أصابعهم رؤوس مسدساتهم المخفية بحذر واستعداد إثر التوصيات والتحذيرات عمن يتعاملون معه، كانو قد

أعدوا خطة دقيقة، لكن من يتذكرها حين يبدأ الضرب، فيرتمون أرضاً ويصوبون طلقاتهم في اتجاهات مختلفة. لكنهم لم ما احتاجوا لذلك الآن؛ فالعربة قد توقفت بكل سهولة والزجاج نزل بمرونة وبطء، وتاجر المخدرات بدا شخصاً عادياً فعلاً، كهل بوجه شاحب وببعض خطوط التعب، وأجاب بكل سلاسة على أسئلة العسكري عن الرخصة وورق العربة وحتى أنه بدا مستعداً لإطلاق نكتة والدخول في ثرثرة جانبية سهلة، العسكري هو الذي كان مرتبكاً ولم يعرف كيف يجاريه في الكلام سوى بتنفيذ الفعل نفسه، الاعتقال، إذ تراجع خطوتين وأخرج مسدسه وصاح بلكنة بدت غريبة فعلاً، وبصوت سمعه كل الباعة المتجولون والمارة:

”إرفع يديك فوق واطلع برة العربية انت رهن الاعتقال»!

بدا التاجر مستغرباً، والعسكري أكثر استغراباً عما يجب أن يفعله بعد ذلك، كان عالماً بعدد الشوالات وأهمية الموقف وخطورته، لم يحصل أن مرّ بتجربة كهذه، وهذه أول عملية اعتقال مباشر يخوضها، لماذا كان هو المختار لهذه المهمة؟! فكَّر في الطريقة الغريبة التي تلى بها أمر الاعتقال والتي لابد أن زملاؤه سيضحكون عليها لشهر كامل، لكن من الذي لاحظ غرابتها؟! فكل العساكر كانوا محتدمين تماماً مع اللحظة واحتمالاتها، إذ سرعان ما حاوطوا العربة بينما

وضعوا الدورية أمام التاجر لسد المنفذ الأمامي للهرب، أما حضرة الصول فركن سيارته بالخلف وترجل ليقف بجوار الصندوق الثمين، حين خرج التاجر رافعاً يديه طرحوه أرضاً وفتشوه، ثم سأله حضرة الصول عما يوجد في الصندق الخلفي، قال: ''لا يوجد شيء»، ضحك حضرة الصول غصبا عنه، ثم أمر بإخلاء الشارع وقيادة السيارة إلى الرصيف وإبعاد الناس والمارة الذين بدأوا بالتجمهر، وحين كان كل شيء جاهزاً فتح صندوق العربة، لتبرز عشرة شوالات وتظهر الملامح الاحتفالية في وجوه العساكر وحضرة الصول الذي لم يستطع إخفاءها، كان كل شيء يمشي في الاتجاه الصحيح، حيث بدأوا كلهم بالتطلّع نحو ما قد تحتويه الشوّالات، متلفتين بين مراقبة الشارع والقبض الحذر على أسلحتهم وبين تصوير حضرة الصول للشوالات من عدة زوايا ثم لمسها بيده وتفحصها من الخارج، ثم بداية فتحها، الشوال الأول حوى بداخله ورقاً أبيض. الكثير الكثير من الورق الأبيض! مما خلع قلب حضرة الصول عن مكانه للحظة، أخرج حزمة أوراق ونظر فيها مندهشاً دون أن يستطيع قراءة المكتوب ودون رغبة لإخراج النظارة الآن، لكن المهم أنه مجرد ورق لعين، رماه وبدأ بفتح عدة شوالات أخرى ليجدها مليئة كلها بالورق الابيض فقط، شوالاً وراء شوال.

يحتاج بندولا في هذه اللحظة. ليس للصداع ولكن لأخذ راحة، برهة يفعل فيها شيئاً يستعيد به هدوءه.

صاح بعدة شتائم متفرقة لكل شيء، وزّع اللعنات يميناً وشمالاً حتى تناثر رذاذ البصاق فيما حوله، صاح في العساكر:

''فليأتِ أي أحد لعين ليقرأ لي هذا الورق».

كانت قصصا وحسب.

قرأ العسكري الأول ما تيسّر من الورقة وكانت هذه خلاصته. صاح فيه حضرة الصول:

''قصة؟! .. ماذا تعني بقصة؟»

''أعني أحداثاً.. أشياء تحدث»

فكّر العسكري في جملة تشرح المعنى، لكن الأسلم هو القراءة بصوت عالٍ للصول قبل أن يفقد عقله تماماً، القراءة هي ما أفقد الصول عقله فتوقف العسكري وقال إنها كالقصص الموجودة في كتب اللغة العربية، أو الجرائد. تقدم عسكري آخر وآخر، فجأة وجدوا أنفسهم يفتحون الشوالات ويقرأون قصصا، في كلام مسترسل، في أشياء وأحداث وشخصيات وتفاصيل ''أين الهيروين؟!».. ليس ثمة رائحة له حتى، بل رائحة الورق الأبيض الجديد، والصبغة

والصدأ، تلك الخلطة الغريبة التي تشمها في شارع المطابع في السوق العربي. والأغرب أنه حين دار حضرة الصول دورتين حول نفسه ثم التفت ناحية مكان جلوس التاجر على الارض.. لم يجده.

في إدارة المباحث لم يعرف الضابط كيف يتفاعل مع الحدث سوى بالمزيد من الأسئلة العبثية تماماً:

– ماذا تقصد بالورق؟

– ماذا تقصد بالقصص؟ أي نوع من القصص؟

– هل أنتم متأكدون من أنكم أوقفتم العربة الصحيحة والشخص الصحيح؟!

وكان حضرة الصول يرد بكل وقاحة وانفعال ممكنين إثر غضبه وخيبة أمله:

– ”نعم إنها نفس العربة ونفس تاجر المخدرات اللعين الذي أراقبه منذ أسبوع.. ونفس الشوالات التي رأيته ينقلها من بيوت مشبوهة».

ضحك الضابط غصباً عنه، شر البلية ما يضحك، تأسّف وأعاد ملامح الجدية لوجهه قائلا:

– ”إذن هو تاجر مخدرات يسير بعربة غير مسجّلة في مسارات غريبة، وينقل بضاعة من بيوت مشبوهة، ثم نجدها عشرة شوالات من الورق الأبيض، هكذا فقط؟!»

لا يعرف حضرة الصول بم يعلّق، فالموضوع كله غير منطقي فعلاً ولكنه كان يسير بخطوات الجرائم نفسها، كل شيء كان يشير لمحتويات تلك الشوالات.. صاح:

– ”إنها ليست عمليتي الأولى أيها الضابط، هذا ما أفعله منذ خمسة وثلاثين عاماً هنا».

فرد الضابط بنفس اللهجة العنيفة:

– ”أين المخدرات إذن! لماذا انتهى الأمر بشوالات أوراق؟!»

اقترح ضابط آخر بأنه ربما كان كمينا، أو مجرد اختبار نتيجة لشك التاجر في مراقبة الشرطة له، بينما الشحنة الحقيقية تسير الآن بأمان في شارع ما، لكن حضرة الصول هز رأسه نافياً.. قال بأن خبرته لا تقول ذلك، وأن تلك العملية هي عملية تسليم حقيقية جداً، ضحك الضابط باستفزاز وقال لحضرة الصول:

– ”إذن أنت تقول أن تاجر المخدرات قد ترك المخدرات

وأصبح يقود عربات غير مسجَّلة ليعمل بها في عمل شريف تماما كترحيل ورق؟!»

تجاوز حضرة الصول استفزاز الضابط مشغولاً بالتفكير، كان محتاراً، لأول مرة منذ مدة طويلة جداً، يراجع كل شيء في رأسه، كيف حدث ما حدث وأين الخطأ إن كان ثمة خطأ، ولماذا آلت المراقبة والخطة المتقنة لضحكة كبيرة كهذه، شحنات من الورق الأبيض تحوي كلاماً لا يبدو مفهوما أصلاً! حاول إعادة صياغة الأمر للضباط كما حدث بالضبط، بكل الوقائع، محاولاً الوصول لخلاصة أو ثغرة واضحة بلا فائدة. سأله الضابط كيف هرب التاجر فصاح قائلاً:

– ”بسبب هذه الدهشة التي تنتابكم أنتم أيضاً الآن، فحين انكبّ العساكر حول شوالات الورق وجد التاجر نفسه وحده فهرب»

ثم استدرك متسائلاً:

– ”لماذا يهرب التاجر لو أنه مجرد ورق، مجرد ورق أبيض لعين»

كان الضابط محتاراً في تلك اللحظة مما يجب أن يكتبه في التقرير، لم يعرف كيف يضع جملة واحدة معبّرة عما حدث

فرمى القلم باستياء وقال لحضرة الصول:

– ”التفسير الوحيد أنكم قبضتم الرجل الخطأ، بدل أن تقبضوا على تاجر مخدرات قبضتم على صاحب مطبعة، أو صاحب عربة ترحيلات، أو مجرد سائق ترحال لعين، لذلك سأكتب في التقرير أن الاعتقال كان مجرد خطأ عادي..»

لكن حضرة الصول يعرف ما تعنيه كلمة ”خطأ عادي» بالنسبة لرجل في عمره، إذ اندفع نحو المكتب وضربه بيده صائحا أنه لم يخطأ أبدا، وأنه يرفض ما يلمّح له الضابط وما قد يفهمه الناس من تقرير كهذا .. قال:

– ”أعرف أني على بعد وقت بسيط من المعاش، وأنني ربما أكون متهما دائماً باحتمالية الخطأ والعجز في لحظة ما، هل ستكتب عن نظري الضعيف أيضاً، عن تداعي مقدرتي الجسدية، عن آلام ظهري التي أخذت إجازة يومين بسببها قبل شهر، لن أرضى أيها الضابط بإهانة كهذه في آخر سنين عملي أبداً»

اعتذر الضابط قائلا بأنه لم يقصد أيّ إهانة، وحاول بعض العساكر تهدئة الصول ولكنه كان غاضباً كفاية لئلا يهدأ، ولم يرض بأيّ تنازل عن صحة ما قام به في هذه المهمة، بغض النظر عن النتيجة ومحتوى الشوالات، فكّر أنها ربما

كانت تلك مجرد صدفة لعينة جعلت تاجر المخدرات ينقل ورقاً كخدمة لصديق عزيز مثلاً، أو ربما أخطأ التاجر نفسه بأخذ شوالات أخرى غير المليئة بالهيروين..أم هو خطأ الشخص الذي أعطى الشوالات لتاجر المخدرات، إلخ ألخ .. كان واضحاً كيف تتوسع الاحتمالات العبثية واللا نهائية في رأسه مما يدفعه للمزيد من الغضب.

وضّح الضابط وجهة نظره قائلاً إنه لم يقصد أيّ إهانة أو تلميحاً سيئاً لعمره أو كفاءته، بل إنه نال هذه المهمة لأجل الكفاءة التي دائماً ما أظهرها، ولكن –لا يعرف الضابط ماذا يقول بالضبط–

– ”ولكن ما وجدتموه في تلك الشوالات، غريب حقا»

ذهبوا جميعا إلى غرفة المعروضات، قال العسكري إنها عشرة شوالات، في كل شوال عشرين حزمة وفي كل حزمة ألف ورقة، وكل حزمة مربوطة بشريط بحيث لا تختلط مع البقية، وكل خمس أو ست ورقات داخل كل ألف ورقة تشكل مجموعة منفصلة، بينها وبين كل مجموعة أخرى ورقة فارغة.

حلَّت فترة صمت مربكة إثر هذا الشرح الجيّد إحصائياً لكنه مع ذلك يفتقد لأيّ خلاصة عقلانية تشير لشيء مفهوم، لم يعرف أحد ما يجب قوله بالضبط فالتفتوا نحو

الضابط الذي قال بعد ارتباك:

- ”ماذا عن الكتابة نفسها، المحتوى؟!»

تلفت العساكر الثلاثة لبعضهم، ليقول أحدهم متردداً:

- ”لم تكن مهمتنا أن نقرأها .. بل حسبناها فقط»

صاح فيهم الضابط منفعلاً عن تحديدهم لمهمتهم على كيفهم، وأنهم طالما استلموا ورقاً في غرفة الأدلة فيجب أن يعرفوا كل ما يتعلق به، وليس حسابه فقط. لكن كلام الضابط بدوره لم يكن عقلانياً تماماً، لم يفكر فيه مرتين، إذ فضحه السؤال التالي من العسكري:

- ”لقد قال عساكر الدورية إنها مجرد قصص، فهل تقصد بأن نقرأها كلها، أو حتى نصفها؟!» ..

كان ورقاً كثيرا فعلاً بحيث حتى نصفه يبدو كثيراً جداً.. لم يعرف الضابط بماذا يرد، فلو قال نعم فسيبدو أحمقا تماماً، وإن قال لا فسيتوجب عليه أن يشرح لهم ماذا كان يجب أن يفعلوه بالضبط حين استلموه، وحتى هو لا يعرف ماذا كان يجب أن يفعلوا، في العادة هم يستلمون أدلة ويعاينونها ويكتبون تقريراً مبسطا عنها، لكن هذه أول مرة يستلمون شوالات مليئة بالورق المحتوي على كتابة فعلا.. فهل يجب

أن يقرأوها كلها؟

أنقذه ضابط آخر حين أشار له بضرورة الاطلاع على كمية لا بأس بها من هذا الورق حتى لا يكون الأمر ثغرة في تقرير القضية، فإذا أخذت جهة أخرى منهم الورق واكتشفوا فيه شيئا مهماً فستكون مشكلة كبيرة للإدارة، برغم أنه مجرد ورق يحوي قصصا ولكن ذلك لا يخفي حقيقة أنها وُجدت في الصندوق الخلفي لعربة تاجر مخدرات. كانت ورطة فعلاً للضابط جعلته يحسُّ بغضب متصاعد تجاه حضرة الصول الذي أوقعهم في كل هذا، نظر بذلك الاشمئزاز للعساكر الثلاثة أمامه وفكّر فقط أن يأمرهم بقراءة محتوى الورق ثم يغادر وينتظر تقريرهم غداً في مكتبه، ولكن الواضح له ولجميع من في الغرفة أنها مهمة مستحيلة تماماً، خصوصا لثلاثة أشخاص فقط، بل قدّر أنه لو بدأ عشرة أشخاص قراءة كمية الورق هذه منذ الآن فسينتهون بعد أسبوع. أو يضطَّرون لأن يدّعو كذباً بأنهم قرأوه. هذه المرة أنقذه حضرة الصول نفسه، إذ تقدم نحو الورق قائلاً:

– ”رغم أن ما في الورق مجرد كلام بلا معنى لكن دعونا نُلقي عليه نظرة»

اقتربوا جميعاً من الطاولة وحاوطوها وبدأوا في تناول الورق وقراءته، حل الصمت وارتفعت أصوات كرفسة الأوراق

وتحركاتها، الهمس والهمهمات، الأنفاس والكحة والتأفف الخافت، ثم طقطقات الأصابع والرقاب وتململات الأجساد نتيجة الملل. ولم يستطع الضابط أن ينسحب منهم رغم رغبته العارمة في الخروج وتركهم وحدهم، ولم يستطع عدة عساكر أن يغادروا أيضاً رغم أنهم يتظاهرون فقط بأنهم يقرأون منذ عدة دقائق، خصوصا الذين دخلوا إلى المكتب بدافع الفضول ليجدوا أنفسهم متورطين في هذه الوقفة المزعجة، هذا غير رغبات السجائر والتمباك والبصاق والإحساس باللاجدوى، الوحيد الذي كان يقرأ بكل جدية وذهول كان حضرة الصول نفسه، واقعاً عليه ثِقل الأمر والمهمة والمآل الغريب. رمى فجأة ورقة عن يده وقال:

- ”هذا مجرد كلام فارغ»

وضعو الأوراق عن أيديهم كلهم في نفس الوقت، تنفسوا الصعداء، وأحسوا براحة لطيفة إثر الانعتاق من هذه الوقفة المزعجة، لكن حضرة الصول كان متضايقا فعلاً، أخذ أنفاساً حارَّة وبدا لعدة لحظات كأنه سيقول شيئاً، لم يقل، لم يستطع إيجاد الكلمات المناسبة، كان منظره مثيرا للشفقة، سارحاً هكذا، وضائعاً بين كل هذه الأوراق، وبين احتمالية الخطأ. العساكر بالخارج كانو يضحكون فعلا لِما حصل، المدير ذاته حين أتاه الخبر ضحك، ثم تحسَّر على الميزانية

الضائعة في المهمة، جميع الضباط تكلموا عن أنها ربما تكون آخر مهمة تُوكَل لحضرة الصول قبل أن يّحال رسمياً لعمل مكتبي ثم المعاش.. كان الجميع يراها سقطة، لكن حضرة الصول الواقف هنا بين الورق كان يفكر في أشياء أخرى، في أن هناك شيء ما يحصل لكنه غير مفهوم، أشار للورق وللشوالات ثم قال للضباط:

– ”أليس من الغريب أن كل شيء منظَّم تماماً؛ عدد الأوراق، كميتها ومقاديرها المتساوية داخل الشوالات، ألا يبدو أن هذا النسق يُخفي شيئا وراءه؟!»

انفجر الضابط ضاحكا دون أن يستطيع التحكم في ضحكته المتمادية، حين كبحها قال إن التنظيم والنسق الشكلي لن يخفيا حقيقة أن هذا مجرد ورق لا معنى له. ثم أبلغه بأنه سيحوله إلى مجلس تحقيق، غَضِب حضرة الصول وثار في بداية الأمر ورفض حتى المثول أمام المجلس، رغم معرفته بأنه مجرد إجراء طبيعي روتيني عند فشل أي عملية، ولكنه لم يقتنع بفشل العملية أبدا.. كان كل شيء منطقي –ما عدا النكتة التي ظهرت في صندوق العربة.. لماذا هرب التاجر، لماذا كان حريصاً على الشوالات من البداية، ثم لماذا هي شوالات وليست شيئاً أقل شبهة لحمل مجرد شحنة أوراق، ماذا سيقول لمجلس التحقيق في الغد بما

أن الإجابات الحقيقية ستكون مضحكة فعلاً، هل كان يراقب لأسبوعين كاملين في سائق تاكسي مثلاً ليقبضه أثناء ترحيله لمجموعة أوراق، هل سيضحكون عليه مثلما ضحك العساكر ليوم كامل.

في صباح الغد كان وجهه بائسا حقاً، ولم يخفي العطر المكثف حقيقة أنه كان يشرب في السجائر طول الليل، وجهه الغاضب، هذا غير قميصه المكرفس وهيئته الموحية بحالته النفسية وخيبته، وأنه يفكر ويفكر بلا انقطاع، سارحاً في كل لحظة بين احتمال وآخر.

ربَّت الضابط على كتفه معتذراً عن كل ما جرى وقال إنه كتب تقريراً لصالحه، لكن حضرة الصول أبعد يده وقال:

– ”اكتب ما تشاء في تقاريرك اللعينة، لأن ذلك لن يغير حقيقة أنني رجل مباحث قدير جداً، ولن أحتمل أيَّ اتهام مبطّن أو ألفاظ منمّقة تلقي علي بطريقة مباشرة أو غير مباشرة مسؤولية ما حصل»

شعر الضابط بالذنب، أو ربما بالشفقة، فجلس جواره وحسب، سكتا لبرهة من الوقت قبل أن يتنهد حضرة الصول ويمد ظهره الى الأمام بوجه شديد البؤس ثم يقول دون أن يفهم إن كان يخاطب في الضابط أم في نفسه:

”ما حصل بالأمس، ألا يبدو شيئا غريبا فعلا، وكثيرا، أقصد.. كل هذه الاشياء التي لا معنى لها، ربما تشير بالضبط إلى معنى ما»

انفجر الضابط في ضحكة طويلة، اعتذر بعدها لحضرة الصول فرد له قائلا:

– ”أنت تعتقد أني بدأتُ أفقد صوابي أليس كذلك؟! .. تعتقد أني كبُرت وأصبحت أتخيل أشياء غبية أو أغفِل ملاحظة أشياء مهمة، أنت تعتقد حقا بأنني ربما خربت هذه القضية»

تأفف الضابط وقال:

– ”لا تبدأ في لومي مجدداً، فأنا أفعل كل ما أفعله كإجراءات طبيعية، ولا أعتقد أي شيء في أيّ شخص»

– ”لا تكذب .. أنا كبير بما يكفي لأستحق أن تُقال لي الحقيقة، لكن تباً لك على أي حال، أي حقيقة تلك التي أريدها منك، فلتذهب أنت واعتقاداتك للجحيم».

ابتسم الضابط ثم قال له:

– ”بما أنك تلعنني منذ الأمس فدعني أحدِّثك بصراحة، الحقيقة أنك كنت غريباً جداً في الأسابيع الأخيرة، وكلنا

لاحظنا ذلك بمن فيهم أنت نفسك، الصراحة المستفزة في تقاريرك، كسرك للكثير من بيروقراطيات العمل ولا مبالاتك. ربما نعذرك وننسب تصرفاتك ذلك للملل والزهج وحتى الاكتفاء. وربما لا نحتاج لأن ننسبه بما أن المشاعر السلبية والتعب شيئان طبيعيان في عملنا هذا، ولكن الآن مثلاً.. لماذا أنت غاضب جداً ومستغرق في محاولة إثبات أن القضية لم تفشل.. لقد وجدتَّ ورقاً بالفعل يا حضرة الصول، في ذلك الصندق، مجرد ورق في شوالات من المفترض أن تحوي مخدرات، نعم إنه أمر غير منطقي ولكنه حدث، وحدث لك أنت بالذات، في هذا العمر، في مهمة كنت أنت المشرف الوحيد عليها، ولا أحد سيتحمل مسؤوليتها غيرك، فلماذا لا تتقبّل فشل العملية وتتحمل المسؤولية بشجاعة وينتهي الأمر»

– ”تريد أن تقول أني غير محظوظ. أليس كذلك؟.. بعد كل هذه السنين من العمل الجيّد والسيرة الحسنة تنتهي مسيرتي المهنية عند قضية كهذه، بهذا الورق الغريب الذي يطلّ من صندوق العربة كنكتة سيئة. لم يضحك العساكر علي طيلة حياتي، والآن لا يستطيعون منذ الأمس التوقف عن الضحك.. هل سأصير أضحوكة في آخر مهمة لي.. وأقبلُ حينها الترجّل عن العمل وتحمُّل هذه الخاتمة السيئة

كمجرد حظ سيء، ها؟ وأعيش باقي أيامي وأنا أتذكرها هي فقط متحسراً و نادماً، كل ذلك يفعله بي مجرد ورق أبيض لعين»

– ”كلنا سنكون متحسرين في النهاية، سواء بمهمة ناجحة أم فاشلة، وكما قلت لا يمكن وصف ما جرى لك سوى بالحظ السيء، لكن دعني أقدم لك نصيحة؛ لا تعاند وتجري وراء قضية فاشلة فقط لمحاولة إثبات أنك لم تخطئ، هذا وحده سبب غبي سيدفعك لأخطاء أخرى وسيجعل منك أضحوكة أكبر»

قاطعه حضرة الصول:

– ”أنا لا أندفع الآن غاضباً .. بل وراء شيء حقيقي، رغم أنه مبهم ولكنه حقيقي، ما حصل بالأمس لا يمكنني تجاهله بافتراض أنه شيء غبي وحسب، هناك مخدرات كانت في مكان ما ربما فقدتُّ تتبعها فعلاً، وإن لم تكن هناك مخدرات من البداية فإن تلك الاوراق وراءها شيء يجب أن أفهمه»

نظر فيه الضابط قليلاً قبل أن يقول:

– ”هذا هو فقدُ الصواب بعينه، ما الذي تريد أن تفهمه؟! الحقيقة أنك منذ فترة وأنت تريد فهم الكثير من الأشياء

البديهية، قبل ثلاثة أيام حين سألتك لماذا تكتب في تقرير رسمي أن عملية بوليسية خطيرة تفشل بسبب رغبتك بأن تفطر الساعة الثامنة. قلت لي: لأنها الحقيقة.. بلا أيّ مبالاة!. ثم تقول لي الآن أنك تحسّ بأن شيئاً مهماً وكبيراً وراء سائق تاكسي يحمل ورقاً»

أشار لهم عسكري في تلك اللحظة بالدخول لغرفة مجلس التحقيق، جلس حضرة الصول في كرسي بمنتصف الغرفة بينما تقابله أربعة كراسي عليها أربعة ضباط، مسح حضرة الصول عرقه المتكاثر عن وجهه الغاضب وأحسّ برغبة شرب سيجارة، بينما كان الضباط يتهامسون فيما بينهم ليقاطعهم اتصال هاتفي استقبله الضابط المسؤول منه، كان الشخص في الخط الآخر يخبره بأنهم قبضوا على تاجر المخدرات الفار بالأمس، وأنهم جلبوه الآن للإدارة..

هبّ حضرة الصول والضابط نحو غرفة التحقيقات بينما تبعهم باقي ضبّاط مجلس التحقيق، دخل الجميع للغرفة وتبعتهم كراسيهم بينما تداعى العساكر بالخارج للتنصت على تاجر المخدرات الذي أضحى مشهوراً بينهم الآن. وكان المسؤول الأول عن التحري هو حضرة الصول ثم الضابط، أما البقية فمستمعون فقط.

أخفى حضرة الصول يده التي ترجف داخل جيبه ثم أخذ

نفساً عميقاً قبل أن يبدأ أسئلته.

سأله عن اسمه وسنه وعنوان منزله وعن مهنته في مجال ورش ميكانيكا السيارات وجاوب عليها كلها دون تعثُّر، سأله عن جرائمه السابقة وإن كان دخل سجناً من قبل فقال ''نعم'' وفسّر أنه قُبض عليه قبل عشرة أعوام بتهمة الإتجار بالهيروين وسجن لمدة سنتين ثم قبل أربع سنوات قُبض عليه بتهمة الإتجار بالبنقو، ولم تثبت عليه التهمة.

سأله حضرة الصول: ''هل تعرفني؟!»

قال تاجر المخدرات: ''نعم.. أنت الشرطي الذي قبض علي بالأمس».

اندهش الجميع ليردف حضرة الصول:

– ''إذن تعترف بأننا قبضنا عليك وهربت منا؟!»

فقال:

''لا لا .. لم أهرب، فقط وجدتُّ أنكم انكببتم جميعا حول صندوق العربة وتركتوني وحدي، فذهبت لحال سبيلي، وربما عدت مرة أخرى ولم أجدكم»

ضحك بعض الحضور ليردف حضرة الصول قائلا بكل

جدية وتوتر:

– ”تعرف إذن ما وجدناه في صندوق عربتك؟!»

– ”نعم .. ورق»

– ”وما هو هذا الورق؟»

– ”لا أعرف حقا، كنت أحمله وحسب من أجل توصيله لمكان آخر»

”ماذا تقصد؟»

– ”أقصد أنها أمانة، مجرد شحنة من الورق أسلّمها وأستلمها، وأقبض مالاً لِقاء ذلك»

– ”إذا كانت مجرد شحنة ورق توصّلها فلماذا كنت ترتّب لها بدقة منذ أسبوع، ولماذا كل هذه التحوطات والتمويهات والحذر»

فضحك التاجر وقال:

– ”تراقبونني منذ فترة إذن»

ضرب حضرة الصول الطاولة بعنف وقال:

– ”أجب على السؤال اللعين»

أخذ التاجر نفسا عميقاً وهو يعاين غضب حضرة الصول ثم رد قائلاً:

– ”التحوطات والحذر والطريقة التي نقلته بها كانت إحدى متطلبات صاحب الشحنة، لقد نفّذت ما طلبه مني فقط».

”من هو صاحب الشحنة هذا؟!»

– ”لا أعرف، رجل أربعيني ربما، جاءني فجأة في الورشة وأخبرني بما يريده».

حكّ حضرة الصول رأسه ثم سكت قليلا قبل أن يقول:

– ”ألا يبدو لك عملاً إجرامياً أكثر من كونه نقل لورق وحسب».

ضحك التاجر وقال:

”أنتم من تحددون ما هو العمل الإجرامي وليس أنا، هل وجدتّم شيئاً غير قانوني في ذلك الورق؟!»

فتأفف حضرة الصول وقال:

– ”لا أفهمك، أقصد .. أنت تاجر مخدرات! .. فما الذي يدفعك لأخذ شحنة أوراق وتوصيلها أصلا؟!»

فقال الرجل بجدية:

- ”أنا لستُ تاجر مخدرات»

أوقف حضرة الصول عسكري التسجيل فوراً وأعلن بصوت عالٍ للجميع أن هذا السؤال خارج التسجيل وأن الجواب لن يخرج من هذه الغرفة ثم نظر في عيني التاجر وقال بصوت حازم:

”أرجوك أخبرني ما الذي يدفع تاجر مخدرات مثلك لهذا الفعل؟!»

ضحك التاجر وتلفّت بين الوجوه ثم قال:

- ”حسنا.. بصراحة لقد كنت أتاجر فعلاً لسنتين ماضيتين في الأشياء التي تعرفونها، ولكني توقفت عنها تماماً منذ أشهر حين عرضوا علي هذا العمل، نقل شحنات من الورق، بنفس سعر المخدرات تقريباً، وبلا مخاطر واضحة، كان شيئا مثالياً»

اندهش الضباط وأتتهم رغبات متفرقة لإطلاق أسئلة دون أن ينفذوا رغباتهم، أما حضرة الصول فتنحنح وبلع ريقاً صعباً إثر رغبة عارمة لنفخ سيجارة.. قال:

- ”كم هو السعر؟»

– ”لا أستطيع أن أقول أرقاماً، لكن يمكنك توقعه بما أنك رجل مباحث، أخبرتك بالتقريب أنه نفس سعر نقلة مخدرات، بنقو مثلاً»

أرخى حضرة الصول ظهره على الكرسي دون أن ترتخي عضلات وجهه، تلفَّت للضباط المندهشين حوله أيضاً ثم عاد للتاجر قائلاً:

– ”ولم تشكك أبدا في أيّ شيء؟ لم يأتك الفضول لمعرفة ما تنقله بهذا السعر، لم تحاول فهم ما أنت منخرط فيه!».

ابتسم التاجر وقال:

– ”التشكيك والفضول ومحاولة الفهم سأتركها لشخص آخر، أنا يهمني المال، ومع ذلك فأحياناً تمر علي لحظات أشعر فيها بالفضول فعلاً والتوق لمعرفة سر هذه الأوراق، سأحب أن أجد من يخبرني به.. هل ستخبرونني أنتم؟»

تهامس الضباط وتنهد حضرة الصول ثم أشعل سيجارة بلا مبالاة بمن حوله ونفخها بتسرّع. أومأ الضابط مع عدة ضباط آخرين ثم قال موجهاً كلامه لحضرة الصول:

– ”الموضوع كله مزحة سخيفة، مجرد أكاذيب وترهات من فم هذا التاجر القذر»

اقترح ضابط آخر بأن يُدخلوا التاجر لعلقة نظيفة في الغرفة الشمالية.. ثم يعيدوا التحقيق من البداية ليعرفوا إن كان سيقول الكلام نفسه، أما حضرة الصول فكان لديه سؤال إضافي للتاجر:

– كيف تتواصل معهم، كيف تعرف بأمر الشحنة التي ستنقلها؟

– ”الأمر بسيط، فهم من يصلون لك، فجأة تجد ورقة على طاولة المقهى أمامك أو في عربتك أو في حوش منزلك تخبرك بتفاصيل الشحنة ومواعيدها، فقط هكذا».

استغربوا جميعا.

قال حضرة الصول: ”وهل لديهم أوقات معينة يخبرونك فيها، أقصد الفترات بين الشحنات مثلا»

– ”لا، بل أوقاتهم عشوائية تماما، أحيانا أيام، أحيانا أسابيع، مرة غابوا لثلاثة أشهر حتى يئست منهم».

استغرب حضرة الصول وحاول أن يصيغ سؤالاً لعدة مرات بتمتمات، ثم سكت لوهلة وقال:

– ”ما أريد أن أقوله هو كيف يعلمون أنك ستشحنها أصلا، بمعنى هل يربطك معهم عقد مثلاً، هل يشاورونك؟»

ضحك التاجر وقال:

– ”لالا، الأمر أبسط مما تتصور، هكذا قال لي الرجل الأربعيني حينما قابلني، أنت تعمل عندهم طالما أنك نقلت الشحنة الحالية الموكلة لك، مما يعني أنك في اللحظة التي لا تنفذ فيها المهمة فأنت خارج العمل، إلى الأبد، كأنك هكذا تقدم استقالتك».

استغرب الجميع بينما توج حضرة الصول استغرابه بسؤال: ” ماذا لو كنت مريضا، أو مشغولا؟!»

فقال التاجر: ”نعم .. حتى لو كنت ستموت الآن، لا يهم، مهما كانت الظروف، إذا لم تقم بنقل الشحنة التالية فقد انتهى عملك معهم، وخسرت كل ذلك المال للأبد».

أخذ حضرة الصول عدة أنفاس وتفقد صندوق السجائر ونظر عميقاً في عيني التاجر وقال:

– ”هذا يعني أنك تكون دائماً في حالة انتظار لهم؟»

– ”نعم، دائماً، ماذا أفعل سوى الانتظار»

**

لم يكن يظن أن الخرطوم يمكن أن تكون أكثر غرابة مما

هي عليه، ولا أن يبعث له القدر بعد كل هذا العمر شيئاً يجعله محتاراً لغاية التشكيك في يده التي أمام عينيه، لم تكن تلك مجرد عملية، بل لعنة ستلوّن حياته كلها بظلال سوداء ما لم يكشف سرها، كان قد شتم ضباط مجلس التحقيق قبل أن يخرج من تلك الغرفة، شتم تاجر المخدرات الذي أُطلق سراحه في نفس اليوم، شتم المباحث كلها ولم يرجع لذلك المبنى أبداً، ولا إلى بيته، في أماكن كثيرة وصم بالجنون، وعلى مر أسابيع تم تصنيفه بحالات مختلفة داخل مكاتب كثيرة، وداخل بيته بالذات، وداخل شوارع من مارة عابرين خصوصاً بالطريقة التي بحث بها عن أوراق، مجرد أوراق. كان يمشي في الشوارع متجاوزاً كل شيء إلا الورق الأبيض الملقى هنا وهناك، باحثا دائماً عن قصة، عن سرد مكتوب يشبه الذي وجده قبلا، ثم انتقل من الأوراق الى الأشخاص، صار ينتبه مع كل شخص يقوم فجأة عن مكانه في مقهى أو مطعم أو محطة مواصلات، متوقعاً أنه تلقى الرسالة الصغيرة لشحنة ورق، يراقب في اليوم خمسة وستة أشخاص بلا فائدة، يختارهم عشوائياً أحياناً، كان قد راقب تاجر المخدرات لأسبوع كامل صباحا ومساءً في انتظار أن تأتيه رسالة لشحنة ورق جديدة، حين واجهه مرة بأنه يراقبه ضحك تاجر المخدرات على النكتة، رجل ينتظر رجلا هو أيضا ينتظر شيئاً، لكن تاجر المخدرات يعرف

ما ينتظره بالضبط، رآه وسمعه، شيئاً يقينياً مارسه من قبل بالتجربة والآن ينتظره بالأمل، لكن ما الذي ينتظره حضرة الصول بالضبط، شيئا لا يستطيع أن يتصوره عقله، لغز كامل، إيجاده ليس بأقل غموضاً من عدم إيجاده، ينتظره بلا يقين، بلا إيمان، شيء غير منطقي، كيف تنتظر شيئاً يستوي فيه الحدوث مع عدم الحدوث، يتمدد غموضه في الحالتين، لكن لحضرة الصول تبرير للانتظار يفوق الإيمان والأمل، الحاجة لإنقاذ تاريخه الشخصي، خاتمة أعوامه الطويلة في الشرطة، أنه لم يخطئ في آخر عملية في حياته كشرطي مباحث، كيف تنتهي مسيرة كهذه بعساكر يضحكون عليه، أثناء قراءتهم لقصص في ورق أبيض داخل شوالات، فقط هكذا، صار يقوم مع كل شخص يقوم عن مقعده حتى استحالت لعادة، يغادر مع المغادرين، يقرأ الأوراق التي يجدها في الشارع، يتابع الجرائد بتدقيق بحثاً عن شيء معين حتى ملأ بها غرفته، قالت بنته إنها بحثت عنه لخمس دقائق في غرفته بين جرائد، بعد عدة أيام قالت شيئا أغرب، إنه أدخل خمسة شوالات من الورق لغرفته بينما قال طبيب عيادة الشرطة بأنه أتى له قائلا بأنه يريد نظارة قراءة وقطرة لتعب العيون، بنته قالت أنه صار يشرب ثلاث سرامس قهوة في اليوم، ويخرج للحوش في حالتين فقط، الحمام وشراء السجائر، حين تاوقت عليه مرة من الشباك

وجدته يقرأ فقط، ورقة وراء ورقة، يدخل يده للشوال ويخرج ربطة الورق ثم يعدل ترتيبها ويبدأ في القراءة ثم يضعها مع الورق المقروء، حين ذهبت بنته إلى إدارة الشرطة مشتكية من حالة والدها حكوا لها قصة الورق، وسر إصرار والدها على اكتشاف شيء يفسر ما حصل، وشرح لها الطبيب النفسي أبعاد الأمر قائلا بأن حضرة الصول يصارع في إحساس المعاش وشعور العجز وعدم الحاجة له، لذلك يمر بهذه الحالة، ويبحث عن سر وراء ورق آخر مهمة له، مجرد ورق، بعد عدة أيام أحسّ حضرة الصول بشيء ما، أن هناك شيء يتكرر في هذه القصص التي أمامه، يتكرر بإيقاع متباعد وأحيانا متقارب، بل حتى أنه يلقي بظله في كل قصة، وهو أن هناك دائما شخصاً ينتظر آخرا، أو ينتظر خبرا، أو ساعة معينة، تنويعات مختلفة للانتظار، تطل من جميع الورق، حتى أنه حين راجع ما قرأه لأيام لم يجد في رأسه سوى أشكال للانتظار لم يكن يتخيلها انتظاراً، ثم داخل ليلة معينة، قبل ساعتين من أذان الفجر، صرخ، ثلاث صرخات، وارتجف، كان قد قرأ للتو في إحدى الأوراق، عن حضرة صول، يقرأ في ورق، منتظراً شيئاً ما.